عَقِيدَتُنَا

تأليف

أ.د . محمد ربيع محمد جوهرى

أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين
وعميدها الأسبق
وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

الجـــــــزء الأول

الطبعة الثانية عشرة

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

بســـــم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . هو المبدئ المعيد ، فعّال لما يريد ، ذو العرش المجيد ، والبطش الشديد ، الهادى إلى المنهج السديد ، المتفضل علينا بشهادة التوحيد . المنعم بإرسال الأنبياء والمرسلين ، المتفضل بخاتم النبيين ، وسيد الأولين والآخرين ، الحبيب المصطفى ، والرسول المجتبى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين .

« اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت . وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ماقدمت وأخرت ، وأسررت وأعلنت . أنت إلهى . لا إله إلا أنت » .

« اللهم لك الحمد . أنت نور السموات والأرض . ولك الحمد ، أنت قيّام السموات والأرض . ولك الحمد ربُّ السموات والأرض ، ومن فيهنَّ . أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق » .

« اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ، ومن قلب لايخشع ، ومن نفس لاتشبع ، ومن دعوة لايستجاب لها ».

« اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى . وتعلم سرى وعلانيتى ، لايخفى عليك شيئ من أمرى . وأنا البائس الفقير . المستغيث المستجير ، الوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه . وأسالك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال

المذنب الذليل ، وادعوك دعاء الخائف الضرير . من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذلَّ لك جسمه ، ورغم لك أنفه . اللهم لاتجعلني بدعائك شقياً ، وكن بي رؤوفاً رحيماً . ياخير المسئولين ، وياخير المعطين ».

« اللهم هذا الدعاء ، وعليك الإجابة ، وهذا الجهد ، وعليك التكلان ».

وبعد .. فهذه هى الطبعة الحادية عشرة لهذا الكتاب (عقيدتنا) وقد كانت طبعته الأولى فى ربيع الأول ١٤٠٦هـ (نوفمبر ١٩٨٥م) وخلال هذه المدة بذلت أقصى جهدى فى تيسير أسلوبه ، وانتقاء ألفاظه ، واختيار عباراته ، وإضافة ما منَّ الله به وتفضل ، وأنعم وتكرم من موضوعات مهمة .

وقمت فى هذه الطبعة بإعادة صياغة بعض الفصول رغبة فى سهولة العرض، وطلباً لوضوح المعنى ، وناقشت بعض الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، المخالفة لمذهب أهل السنة مناقشة علمية هادئة .

والله أسأل أن يتقبله قبولاً حسناً ، وأن يجزى خيراً كل من اطلع عليه ، وأحسن الظنَّ بى ، وأهدانى عيباً رآه فيه . لأصلحه فيما هو آت . إن شاء الله.

هذا وبالله التوفيق

أ.د/محمد ربيع محمد جوهرى

البدرشين فى : ٥ جماد آخر ١٤٣٧هـ

١٤ مارس ٢٠١٦م

الفصل الأول

ضرورة الدين للإنسان

١ – من منا لم يفكر فى هذا الكون المحيط بنا ؟

كيف نشأ ؟ و كيف يسير ؟ وما هدفه ؟

هل وجد بذاته ، أو له خالق ؟ أوجد بالصدفة ، أم بقدرة قادر ؟

ومن هذا القادر ؟ وما صفاته ؟ وما صلته بهذا العالم ؟

وهذا الإنسان : أهو مركب من جسد وروح ؟ وإن كان كذلك، فما الروح ؟ أخالدة هى ، أم فانية ؟ وإن كانت خالدة ، فكيف يبعث الإنسان مرة أخرى ؟ وكيف يحاسب ؟ وما مصيره ؟ ومتى سيكون ذلك ؟

وهذه الدنيا : هل لها نهاية ستقف عندها ؟ أو أنها مستمرة إلى غير نهاية؟

وهذه الحياة : ألها أسلوب شريف ، وأسلوب وضيع ؟ وما مقياس الخير والشر ، والحسن والقبح ، والحق والباطل ؟

وهذا الإله : (على فرض وجوده) أيمكنه أن يتصل ببنى الإنسان ، ويختار أحدهم ، ليكون رسولاً بينه وبين باقى الخلق ؟ وكيف ذلك ؟ وبم نعرفه نحن ؟

إن هذه الأسئلة – وغيرها من مثلها – تفرض نفسها على كل إنسان ويشعر بحاجته الشديدة ، ورغبته الملحة فى أن يحدد موقفه منها ، ويعرف وجه الحق فيها ؛ ليضع نهاية للقلق النفسى ، والتوتر العصبى ، والحيرة الفكرية التى يحياها ، وليعيش فى طمأنينة قلب ، واستقرار نفس ، وهدوء بال .

والدين هو الذى يقدم الإجابة الشافية على هذه الأسئلة ، وعلى كثير غيرها من مثلها، فتطمئن النفس ، ويسكن القلب ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ الفتح / ٤ . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد] .

٢ – وإننا نقرأ فى كتب التاريخ – سواء ما كتبه المسلمون أو غيرهم – أنه قد وجد رجل اسمه (محمد بن عبد الله) ادعى أنه رسول من عند خالق هذا الكون، و أنه منحه علامات ودلائل على صدقه .

فإذا كان هدف الإنسان الحصول على السعادة ، وتجنب التعاسة ، فعليه أن يبحث فى هذا الموضوع ، ويدرسه دراسة جادة ؛ ليصل إلى وجه الصواب فيه ، وخاصة أن التاريخ يحدثنا أيضاً أن الذين اتبعوا المبادىء التى جاء بها هذا النبى سادوا الدنيا ، وكانوا عباقرة فى كل مجالات الحياة ، وعندما تخلوا عنها أصابهم الذل والهوان .

٣ – إن الدين يبين لنا كيف نشأ هذا العالم ، وكيف أوجده الخالق – جل فى علاه – ويفسر لنا غوامض الكون ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت] .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النازعات] .

هكذا يبين لنا الدين كيف نشأ العالم ، ويوضح صلة الخالق به .

٤ – ثم إن الدين يضع للإنسان النظام الأمثل لحياته فى جوانبها المختلفة من عبادات تقربه من ربه ، ومن تشريعات سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وأخلاقية لازمة لحياته فى مجتمعه .

فإن الإنسان لا يستطيع أن يعيش منفرداً منعزلاً عن بنى جنسه ، وإلا ما وجد عقله ، وملكاته ، ودوافعه ، وأعضاؤه فرصة للنمو والاكتمال فهو فى حاجة إلى أن يعيش وسط جماعة ، وأن يتعاون معهم ، لأنه لن يستطيع أن يعتمد على نفسه فى كل ما يحتاج إليه من غذاء ، وكساء ، ومسكن وغير ذلك ، بل لابد أن يتعاون معهم : يأخذ ويعطى .

وهذا التعامل يحتاج إلى نظام وقواعد وقانون يضبطه ، لكى يتحقق العدل ، ويتقى الجور والظلم ، وإلا طغى الكبير على الصغير ، وأكل القوى الضعيف ، وصارت الحياة فوضى وإباحية ، وعنف وأنانية .

والدين هو الذى يقدم هذا النظام الذى يحقق العدل فى المجتمع [1] .

٥ – وصحيح أن الإنسان يولد على الفطرة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

---

(١) نشرت صحيفة الأهرام المصرية فى عددها الصادر فى ٢٤/٧/١٩٩٨ ص ٢ ما يلى : « فى نصف القرن الأخير زاد الإنتاج العالمى أكثر من سبع مرات ، فمن ٣ تريليونات دولار وصل الإنتاج إلى ٢٢ تريليون دولار . بينما لم يتضاعف عدد السكان فى العالم إلا مرة واحدة . فمن ٣ بلايين نسمة تقريباً إلى ٦ بلايين .. ما هو مصدر الخلل الذى زاد من عدد الفقراء ، ومن حدة الفقر على الرغم من زيادة الإنتاج أضعاف الزيادة فى السكان ؟ .. إن مصدر الخلل الذى تجاهلته وثيقة المؤتمر الدولى للسكان والتنمية هو الخلل فى التوزيع ، وليس فى علاقة الموارد بالسكان . إن ٢٠٪ من سكان العالم – وليس مصادفة أغلبهم فى الشمال – يستأثرون باستهلاك ٨٠٪ من إنتاج العالم ، ويتركون خمس خيرات الأرض لأربعة أخماس سكانها »!!.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الأعراف] .

وهذه الفطرة لو تركت وشأنها ، لاتجه الإنسان إلى معرفة الله ، وحاول التقرب إليه ، لكن هذه الفطرة قد تنحرف بصاحبها عن الصراط السوى، وهذا ما حدث، فقد عبد أناس الأصنام ، وعبد آخرون الأشجار والحيوانات، وبعض مظاهر الكون والطبيعة .

فكان الدين لصيانة الفطرة من الانحراف ، ولتقويمها إذا اعوجت ، وتصحيحها إذا انحرفت .

فالبيئة الفاسدة خطر كبير على الفطرة الإنسانية ، فإنها تمسخها ، وتبعد بها عن معرفة الخالق سبحانه وتعالى، والالتجاء إليه ، ويتجلى ذلك فى التأثير المباشر للأسرة على النشء ، فقد تلقنه بعض المبادئ المنحرفة ، فيشب الطفل ، وهو متعصب لها نتيجة الأثر النفسى لوالديه فيه ، وهذا ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه، أو يمجسانه » (١) .

ولم يقل : أو يسلمانه ؛ لأن الإسلام دين الفطرة .

وهذا ما يفسر لنا سر انصراف بعض العلماء على المستوى العالمى عن التدين؛ فإن الواحد منهم إذا ما تلقن فى طفولته بعض الآراء المشوهة عن الله تعالى ،

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبى – الفتح/٣/٢١٩ .

مثل التثليث ، والبنوة ، والصلب ، والخطيئة ، وما إلى ذلك ، ثم اتجه إلى الدراسة العلمية فى فرع من فروع العلم الحديث الذى يعتمد على المنهج العلمى الذى يقوم على الملاحظة والتجربة ، أو على المنهج الرياضى الذى يقوم على مبادئ العقل، فإنه يشعر بتعارض بين ما تلقاه فى صباه، وبين ما يصل إليه من نتائج وحقائق ، ثم ما يلبث هذا الصراع النفسى أن ينتهى بنبذ فكرة التدين، والاتجاه فقط نحو العلم المادى الذى جعله الله مباحاً لمن آمن به ، ولمن كفر .

فالتنشئة الخاطئة ، والبيئة الفاسدة ، والتعصب الأعمى ، والحرص على المصالح الشخصية ، والجرى وراء الأهواء والشهوات ، كل هذه العوامل تؤدى إلى انحراف الفطرة ، وشيوع الإلحاد .

٦ – وكثيراً ما نقرأ عن حوادث انتحار الشباب ، وانتشار الأمراض النفسية والعصبية فى الدول المتقدمة التى تدعى الحضارة والعصرية . وذلك بسبب طغيان الجانب المادى فى الإنسان ، وإهمال الجانب الروحى الذى يشبعه الدين، ولم نسمع بمثل هذا فى الدولة الإسلامية أيام أن كان المسلمون متمسكين بدينهم ، وعلى صلة قوية بربهم جل فى علاه (١) .

والإيمان يحرر الإنسان من الخوف من المجهول ، ومن العبودية للمخلوق أياً كان شأنه ، ويحرره من الذل والهوان ، والجبن والاستسلام ؛ لأنه يؤمن بأن الخلق جميعاً لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشئ ، لن ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له، وإن اجتمعوا على أن يضروه، لن يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه .

فلا مجال – مع وجود الإيمان – للجبن ولا للنفاق ، ولا للكذب ، ولا

---

(١) جاء فى صحيفة الأهرام المصرية فى عددها الصادر فى ٤/٧/١٩٩٥م ص ٩ ما نصه : « أصبحت السويد من أعلى بلاد العالم فى معدلات الانتحار (١٦ فى الألف)، حتى أصبحت قوائم الانتظار عند الأطباء النفسانيين تطول مدتها إلى ما بين ستة أو سبعة أشهر » .

للشقاق، فالأعمار مقدرة ، وهي بيد الله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران / ١٤٥]. والأرزاق مقدرة، وهي أيضاً بيد الله : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾ [هود / ٦].

والإيمان يجعل الإنسان متفائلاً دائماً راضياً بما قسم الله ، لا يعرف التشاؤم سبيلاً إلى قلبه ، ولا اليأس طريقاً إلى نفسه ، ولا يملك التحسر على ما فاته من أمور الدنيا عليه كيانه ، فيشل حركته ، ويميت نشاطه ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦ ﴾ [البقرة / ٢١٦] .

٧ – إن الإنسان إذا تأمل كل ما يقع تحت حسِّه من أجناس الموجودات، وجد نفسه سيداً لها .

وإذا كانت السيادة تعنى الخادمية والمخدومية ، فأجناس الموجودات جميعها خادمة له ، وهو مخدوم منها .

وأجناس الموجودات مرتبة ترتيب حكمة ؛ بحيث يخدم الأدنى فيها كل أجناس الأعلى منها .

فالجماد الذى نراه ممثلاً فى الشمس والقمر والجبال ، وعناصر الأرض والماء . كل ذلك يخدم أجناس الموجودات التى تعلوه ، فهو فى خدمة النبات . يمدُّه بكل عناصر الغذاء والنمو ، وهو فى خدمة الحيوان ، يمده بكل عناصر البقاء ، وهو أيضاً فى خدمة الإنسان يمده بكل ذلك .

فإذا ارتقينا إلى النبات ، وجدناه لا يخدم ما دونه ، وهو الجماد ، وإنما يخدم من هو أعلى منه ، وهو الحيوان والإنسان .

فإذا ارتقينا إلى الجنس الثالث ، وهو الحيوان ، وجدناه لا يخدم من دونه . وإنما يخدم من هو أعلى منه . وهو الإنسان .

ثم تقف حلقات الخدمة ، فلا نجد للإنسان ارتباطاً بغيره من الأجناس، يكون هو فى خدمتها .إذن فقد انتهت خدمة الكون كله عند الإنسان . وبقى على الإنسان أن يبحث عن مهمته فى هذا الوجود .

الجماد له مهمة يؤديها مع النبات ، والحيوان ، والإنسان .

والنبات له مهمة يؤديها مع الحيوان ، والإنسان .

والحيوان له مهمة يؤديها مع الإنسان .

ثم تنتهى حلقات الخدمة .

فأين مهمتك أيها الإنسان ؟ وأنت فى خدمة من أيها الإنسان ؟

كان على الإنسان العاقل المفكر أن يبحث عن مهمته فى هذا الوجود، وإلا كان أقلَّ من الجماد ، وأتفه من النبات ، وأدنى شأناً من الحيوان . وكيف يكون السيد المخدوم أقلَّ شأناً من الخادم !!

إذن فلابد أن يكون للسيد المخدوم مهمة تناسب سيادته على كل عناصر الموجودات .

ثم أيها الإنسان ؛ هذه الأجناس متى خدمتك ؟

أخدمتك عندما وُجد لك عقل تفكر به لتخدمك ؟

أخدمتك عندما وُجِدت لك قدرة عليها ؟

أم خدمتك قبل أن يوجد لك عقل ، وقبل أن توجد لك قدرة ؟

هب أنك كنت فى البيت وحدك لا أحد معك ، واستيقظت ، فوجدت مائدة عليها من أصناف الطعام لفطورك . أما كان الأجدر بعقلك وفكرك أن تبحث عمن جاء لك بتلك المائدة ؟ أم تتناول المائدة تناول الغاصب ؟

الإنسان يرى فى الوجود أشياء لاقدرة له عليها . كان من الواجب عليه أن يبحث عمن أوجدها له ، وعمن سخرها لخدمته دون قدرة له عليها ، وقبل أن توجد له قدرة !

إذن حينما يرحم الله الناس ، ليخرجهم من غفلتهم ، فيرسل لهم رسلاً يحلون لهم هذا اللغز : من الذى سخر لكم ما لاتقدرون عليه ، وأمدكم قبل أن توجد لكم قدرة ؟

كان من الواجب على الإنسان أن ينصت للرسول ، ويقبل عليه ، لا أن يصم أذنيه ، ويرتكب حمقاً آخر . الحمق الأول : لم يفكر فى مهمته فى الوجود ، والحمق الآخر : إعراضه عمن جاء ليحلّ له لغز الحياة .

تأمل الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلى » .

« خلقت الأشياء من أجلك » هذا هو العنصر الموهوب .

« وخلقتك من أجلى » هذا هو العنصر المطلوب . وهو المفسّر فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[1] [الذاريات] .

(١) الفكرة الأخيرة من كلام الشيخ محمد متولى الشعراوى بتصرف .

لكل حاسة من حواس الإنسان – السمع ، والبصر ، والذوق ، واللمس ، والشم – وظيفة خاصة بها ، ومجال تعمل فيه ، ولا تستطيع حاسة أن تقوم مقام أخرى ، ولكل منها حدود لا يمكن أن تتعداها ، وإلا بطل عملها ، وفقد تأثيرها .

وكذلك عقل الإنسان له مجاله الذى يستطيع أن يعمل فيه ، وإذا ما تخطى هذا المجال تاه وضل الطريق السوى .

إن عمل العقل أن يؤلف بين معطيات الحواس ، وأن يركب ، وأن يحلل ، وأن يخترع ، وأن يكتشف ، كل ذلك فى مجال العلوم الطبيعية : الكيمياء ، والأحياء ، والطبيعة ، والفلك ، والجيولوجيا . . . الخ . أو مجال العلوم الرياضية ، وهى وإن كانت مجردة إلا أنها مرتبطة بالمحسات أيضاً ، فإذا ما جدَّ العقل فى هذا الإطار ؛ فإنه يمكنه أن ينتج لكنه يحتاج إلى الدين لكى يوجه نتاجه للخير والتعمير ، لا للإبادة والتدمير .

أما الغيبيات ، وما وراء الطبيعة ، والأخلاق ؛ فإن العقل عاجز عن استكناه هذا المجال واكتشافه ، ومعرفة حقائق ما فيه ، وذلك لأن العقول قاصرة ، ومتفاوتة ، ومختلفة ، فنتائجها كذلك : قاصرة ، ومتفاوتة ، ومختلفة .

إن العقل البشرى عاجز عن إدراك نفسه ، وهو للآن عاجز عن فهم كيفية عمله ، كيف يتصور ، وكيف يميز ، وكيف يعقل ؟

وما زال كثير من حقائق المادة يجهلها ، ولا يعرف إلا قليلاً عنها .

وحتى الآن لم يعرف شيئاً عن حقيقة الروح ، وكنه الزمان ، وحقيقة المكان !! فضلاً عن الجاذبية ، والإلكترون ، والأثير !! .

فهل بعد ذلك يمكن أن يقال : إن العقل يصلح أن يكون بديلاً عن الدين !!

يقول العلامة ابن خلدون : « العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية ، لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية ، وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع فى محال .

ومثال ذلك : رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب ، فطمع فى أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدل على أن الميزان فى أحكامه غير صادق ؛ لكن للعقل حداً يقف عنده ، ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه »[1] .

ولننظر نظرة واقعية تطبيقية لنرى ماذا حدث عندما اعتبر العالم العقل بديلاً عن الدين ؟

لقد انقسم العالم إلى معسكرين متضاربين متصارعين ، يقف كل منهما للآخر بالمرصاد :

معسكر رأسمالى : يفتح أمام رأس المال جميع أبواب الكسب بلا قيد ولا شرط ، ولو كان بالربا والخداع ، والميسر ، أو الاتجار بالأعراض ، ودون التفات إلى ما ينتج عن ذلك من أنانية أصحاب رأس المال وطغيانهم ، وحقد العمال الفقراء وضياعهم ، وكان الاستعمار وما جره من ويلات للشعوب المستضعفة هو النتيجة الطبيعية لهذا النظام .

ومعسكر شيوعى : يزعم أنه يقدم الحل والعلاج لأخطاء النظام الرأسمالى فيضع المال – الذى هو أساس المشكلة فى تصورهما – فى يد الحكومة ، فيجمع لها سلطة المال فوق سلطة الحكم ، وبذلك يقسم المجتمع أيضاً إلى طبقتين :

---

(١) مقدمة ابن خلدون بتحقيق د. على عبد الواحد وافى ٣ / ١٠٨١ .

طبقة تملك المال والحكم وكل شىء ، وطبقة ليس فى يدها شىء : الأولى تعيش عيشة السادة الأثرياء ، والثانية تعيش عيشة العبيد الأذلاء .

ولم يدم الحال . فقد سقط الفكر العقلى الشيوعى ، وكان لابد أن يسقط ، وانهار الاتحاد السوفيتى ، وكان لابد أن ينهار . وتبين لمن يعى : أن العقل لا يصلح أن يكون بديلاً عن الدين .

أما النظام الجديد لحكم العالم ؛ فبشره بالخسران المبين ، والإخفاق عما قريب إن شاء الله . حيث إنه لم يؤسس على الحق والعدل ، ولم يرتكز على وحى السماء .

« وإذا تساءلت الآن : ما هو إذن موقف العقل من الدين ، وموقف الدين من العقل ؟ فإننا نجمل الموضوع فى النقط الآتية :

نزل الدين هادياً للعقل فى جميع الأمور ، التى لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل ، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة ، وهذه الأمور هى :

(أ) العقائـد .

(ب) المبادىء الأخلاقية إجمالاً وتفصيلاً .

(جـ) التشريع فى قواعده العامة ، وفى بعض تفصيلاته . وقواعده العامة تتضمن الجزئيات على مر الزمن ، وعلى اختلاف البيئات .

أما الطبيعة والكون ؛ فمن سمائه وأرضه ، ومن جباله وبحاره ، ومن كواكبه وأقماره وشموسه ، أما المادة والطاقة . أما أعماق البحار وآفاق السماء . إن كل ذلك قد تركه للإنسان يدرسه فى مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته ، وحثه على أن يجول فى ذلك ما استطاع إليه سبيلاً : حتى يكشف سنن الله الكونية ، ونواميسه الطبيعية ، ويرى صنع الله الذى أتقن كل شىء . ولم يحجر الدين على الإنسان

فى هذا المجال . اللهم إلا الواجب الذى ينبغى أن يكون شعاره دائماً . وهو أن يكون هدفه من كل ذلك : الخير »[1] .

(١) الإسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢١ .

الفصل الثانى
حول علم التوحيد

تعريف علم التوحيد وموضوعه :

يشمل ديننا الإسلامى موضوعات كثيرة يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام : العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق .

فالعقيدة : تشمل الأمور التى يجب أن يؤمن بها المسلم بقلبه . فهى الجانب النظرى أو الفكرى من الإسلام ، ويدرسها (علم التوحيد) .

والشريعة : هى الأعمال التى طلبها الدين من المسلم من عبادات ومعاملات ، فهى الجانب العملى من الإسلام ، ويدرسها (علم الفقه) .

والأخلاق : هى الفضائل والسجايا التى على المسلم أن يتحلى بها ، فهى الجانب النفسى ويدرسها (علم الأخلاق) .

والعقيدة أصول ثابتة ، لم تتغير خلال الرسالات السماوية عبر تاريخ البشرية ، فقد كان كل رسول يقول لقومه : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف / ٥٩] . ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل / ٣٦] ، ويقول : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء / ٢٥] .

أما الشريعة : فهى تختلف فى بعض المسائل الفرعية من دين إلى دين لتتناسب مع ظروف كل مجتمع . قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة / ٤٨] .

والأخلاق الزكية ، وأمهات الفضائل ثمرة للجانبين السابقين ، وقد كملت بالرسالة الخاتمة . قال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقد عرَّف العلماء علم التوحيد بعدة تعريفات نذكر منها :

١ – علم يبحث فيه عن ذات الله ورسله من حيث ما يجب ، وما يستحيل، وما يجوز، وعن الأمور السمعية التى أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ .

فهو يدرس ما يجب لله تعالى من صفات عليا ، وأسماء حسنى ، وما يستحيل عليه من النقائص ، وما يجوز عليه من الأفعال كالخلق ، والرزق، والإحياء ، والإماتة .

وما يجب للرسل من صفات الكمال البشرى ، وما يستحيل عليهم مما يتعارض مع مهمتهم المكلفين بها ، وما يجوز عليهم من المعجزات ، وأكل الطعام ، والمشى فى الأسواق .

وبدرس ما أخبر به ﷺ من السمعيات التى لا يصل العقل البشرى إلى معرفتها وحده كعالم البرزخ ، وعالم القيامة ، وسائر الغيبيات .

٢ – علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشُّبَه .

ومن هذا يتضح أن لعلم التوحيد جانبين :

أ – **جانب تقريرى** : فيه تُعرض العقائد الدينية مدللاً عليها بالأدلة اليقينية من العقل والنقل (القرآن والسنة) .

ب – **جانب دفاعى** : وفيه يُرد بالأدلة على المخالفين لأهل السنة فى الاعتقاد، وعلى الطاعنين والمشككين فى عقائد الإسلام .

وقد اصطلح كثير من المؤلفين فى علم التوحيد على تقسيم موضوعاته، وهى أركان الإيمان الستة (الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر) إلى ثلاثة أقسام :

١ – **الإلهيات** : وتشمل وجود الله تعالى ، وصفاته ، وأسماءه .

٢ – **النبوات** : وتشمل صفات الرسل ، ومعجزاتهم ، وكرامات الأولياء وما إلى ذلك

٣ – **السمعيات** : وتشمل الأمور التى لا يستقل العقل بإدراكها ، إنما نعرفها بالسمع من الرسول ﷺ .كالملائكة، والجن، والحساب ، والجنة، والنار .

أسماء علم التوحيد :

١ – يسمى **علم التوحيد** : لأن أشرف موضوعاته: توحيد الله تعالى .

٢ – ويسمى **علم أصول الدين** : فمباحثه أصل لسواها من الأحكام الشرعية الفرعية .

٣ – ويسمى **علم الفقه الأكبر** : فى مقابلة علم الفقه الأصغر الذى يدرس العبادات والمعاملات .

٤ – ويسمى **علم العقيدة**: لأنه يدرس العقائد التى يجب الإيمان بها واعتقاد صحتها .

٥ – ويسمى **علم الكلام** : لأن صفة كلام الله تعالى قد طال فى تحقيقها الكلام ، واحتدم النزاع، فيكون من باب تسمية الكل باسم الجزء .

أو سُمِّى بهذا؛ لأن دارسه يكتسب قدرة على الكلام فى تقرير العقائد الإيمانية، والرد على الشُّبَه التى تثار حولها .

أو سُمِّى علم الكلام ؛ لأن المؤلفين الأوائل فيه كانوا يُعنونُون موضوعاته بقولهم: (الكلام فى علم الله تعالى) (الكلام فى النبوة) وهكذا .

نشأة علم التوحيد والفرق الإسلامية :

١ – سار القرآن الكريم فى بيانه لمسائل العقيدة فى خطين متوازيين :

الخط الأول – بناء العقيدة الصحيحة فى القلوب بعرضها عرضاً سهلاً يقنع العقل، ويشبع العاطفة، مستخدماً فى ذلك الأساليب المتنوعة، والأدلة المتعددة التى توائم الفطرة السليمة . فبيَّن ما يجب على المسلم اعتقاده من إيمان بالله، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر .

الخط الثانى – هدم العقائد الباطلة المنتشرة بين المشركين وأهل الكتاب : فردَّ على عُبَّاد الأوثان ، والكواكب ، والملائكة ، وأبطل زعم النصارى القائلين بالتثليث، وإثبات البنوة لله ، وعلى اليهود الزاعمين بأن عُزَيراً ابن الله ، وعلى من أنكر أن يكون لله رسل من البشر ، ودحض شبه المنكرين للألوهية، وللبعث بعد الموت .

وقد كانت العقائد المنتشرة فى الجزيرة العربية صورة مما هو موجود فى العالم كله .

وإذا كانت الآيات القرآنية الواردة فى الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، فإن سائر القرآن فى التوحيد ومشتملاته ومتعلقاته .

٢ – وكان سيدنا محمد ﷺ يبلغ ما أوحى إليه من هذه العقائد ، ويفصِّل مجملها ، ويجيب على الأسئلة التى توجَّه إليه من المؤمنين للفهم والبيان، والأسئلة التى يثيرها المشركون وأهل الكتاب للتعنت والامتحان . وأحياناً يتولى القرآن الكريم الجواب .

ولم ينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا ومسائل التوحيد تامة، واضحة فى أذهان الصحابة ، مطمئنة بها قلوبهم .

٣ – واجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة قبل دفن النبى ﷺ

لاختيار خليفته . وهمَّ الأنصار أن يولوا (سعد بن عبادة) لكنهم تراجعوا لما ذُكروا بأفضلية أبى بكر الصديق، وأحقيته بهذا الأمر، واستخلاف الرسول له فى الصلاة، فاجتمعت الآراء عليه، ووقى الله الأمة شر الاختلاف والفرقة .

والذى نستريح إليه ، ويؤكده الثقات من المؤرخين بالأسانيد الصحيحة مبايعة سيدنا (على بن أبى طالب) للصديق مع المبايعين قبل دفن النبى ﷺ (١) . وأنه لما أتاه خبر جلوس الصديق للبيعة . خرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلاً كراهية أن يبطىء عنه ، فبايعه ، وأرسل يحضر ثوبه وجلس معه ، ولم يتأخر عن بيعته (٢) .

ولا يلتفت إلى غير ذلك فى شأن مبايعة (علىّ) كيف وهو لم يفارق الصديق، ولم ينقطع عن الصلاة خلفه ، وما ضنَّ عليه برأى ، أو نصيحة، أو مشورة ، وخرج معه إلى (ذى القصة) شاهراً سيفه لقتال المرتدين!!

صحيح أنه كان يقضى معظم وقته مع زوجته (فاطمة الزهراء) لتمريضها وتسليتها عما هى فيه من الحزن على أبيها ﷺ والشوق إليه . خاصة لما عتبت على الصديق لما طلبت منه ميراثها من أبيها ﷺ ، فأجابها بقوله ﷺ : « لا نورث ما تركناه صدقة »(٣) . فوجدت عليه ، فراعى (علىّ) خاطرها ، بأن كان دائماً بجوارها .

وإذا كان الصديق قد منع (فاطمة) فلم يمنعها وحدها ، بل منع سائر أقاربه ﷺ . وفيهم ابنته (عائشة) رضوان الله عنهم .

---

(١) أنظر البداية والنهاية لابن كثير حيث ذكر أن الحافظ النيسابورى قال سمعت ابن خزيمة يقول : جاءنى مسلم بن حجاج ، فسألنى عن هذا الحديث – أى الذى فيه مبايعة علىّ مع المبايعين – فكتبته له فى رقعة وقرأت عليه . فقال : هذا حديث يساوى بدنة . فقلت : يساوى بدنة !! . بل هذا يساوى بدرة – البدرة كيس من المال – (٥/٢١٨ ، ٦/٣٠٦) وتاريخ الخلفاء للسيوطى (ص٦٩) .

(٢) الطبرى (٢/٤٤٧) .

(٣) أنظر التفاصيل فى صحيح البخارى ك المغازى ب غزوة خيبر – الفتح (٧/٥٦٤) ، وصحيح مسلم ك الجهاد ب حكم الفىء (٣/١٣٧٨)

والجدير بالذكر أن (عليا) نفسه لما ولى الخلافة بعد ذلك ما غيَّر شيئاً مما فعله الصديق فى هذه المسألة . مما يؤكد صحة موقف (أبى بكر) رضى الله عنهما .

ولما علم (الصِّدِّيق) بمرض (فاطمة) دخل عليها ، وجعل يترضاها . ويقول : « والله ما تركت الدار ، والمال ، والأهل ، والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ، ومرضاة رسوله ، ومرضاتكم أهل البيت » فرضيت[1] . هكذا كانوا كبار النفوس ، أطهار القلوب .

ولما توفيت بعد ستة أشهر من وفاة النبى ﷺ سارع (علىٌّ) إلى تأكيد بيعته للصديق ، وولائه له ببيعة ثانية ، أزالت الوحشة التى كانت بسبب الكلام فى الميراث .

وشغل المسلمون فى عهد أبى بكر الصِّدِّيق بحروب الردة ، ولم تطل خلافة الصدِّيق ؛ إذ لقى ربه فى جمادى الثانية سنة ١٣ هـ بعد أن قضى سنتين وثلاثة أشهر خليفة للمسلمين .

٤ – وعنى المسلمون فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب بنشر الإسلام فى العالم، فخضعت معظم بلاد فارس، ودانت بلاد الشام ، وفلسطين ، ومصر، وبرقة .

واهتم عمر ببناء الدولة فدوَّن الدواوين ، وأنشأ الوزارات ، ووضع الأنظمة الدقيقة ، وكان المجتمع كله أسرة واحدة ، لامجال فيه للخلاف أو الجدال فى مسائل العقيدة .

وحقد أعداء النور والحق ، الذين ملك المسلمون بلادهم وأزالوا سلطانهم ، فدبروا أمر قتله ، فطعنه (فيروز) الملقب بأبى لؤلؤه ، وهو

---

(١) البداية والنهاية ٦ /٣٣٨

يصلى الفجر بالمسلمين، فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ ، وبذلك كُسر باب الفتنة ، لتطل على المسلمين برأسها القبيح .

* * *

٥ – واتسعت الفتوحات فى عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، واضطر إلى تعيين بعض الولاة من أقاربه الذين يرى فيهم الصلاحية لتولى هذه المناصب ، فاستغل ذلك أعداء الإسلام للتشنيع عليه بأنه يؤثر أهله ، وكان على رأس هؤلاء (ابن السوداء) عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أرسل بعض أتباعه إلى الأقاليم الإسلامية للتحريض والثورة على سيدنا عثمان ، فاتبعهم بعض الغوغاء فى البصرة، والكوفة ، ومصر .

وبلغ سيدنا عثمان تذمر الناس من عماله على الأمصار ، فكتب إليهم يستدعيهم فى موسم الحج للاجتماع بهم ، والسماع منهم .

وانتهز دعاة الفتنة فرصة غياب الولاة لمقابلة الخليفة ، فحرَّضوا الناس على الخروج إلى المدينة المنورة للالتقاء بالخليفة ، ودافع الخليفة عن سياسته لكن دعاة السوء لا يريدون إلا إشعالها ناراً، تأكل وحدة المسلمين ، فاقتحم الثوار دار عثمان وقتلوه ، وهو يتلو كتاب الله فى ذى الحجة سنة ٣٥هـ .

* * *

٦ – واضطر سيدنا (علىَّ بن أبى طالب) إلى قبول الخلافة ونصح المطالبين بدم عثمان مثل (معاوية بن أبى سفيان) والى الشام ، وقريب عثمان بالتريث إلى أن يستقر الأمن ؛ ليحدد الجناة ، وينزل بهم العقاب .

ولم يستجب معاوية بن أبى سفيان ، وثار على سيدنا علىٍّ ، وهيَّج مشاعر المسلمين بأن جاء بقميص عثمان ملوثاً بدمه ، ووضعه على منبر دمشق : فضجوا، وأخذوا يلتفون حوله ، ويبكون .

واستعدَّ (علىٌّ) للخروج إلى الشام لملاقاة (معاوية) ومن معه من الخارجين .

لكنه علم أن السيدة عائشة رضى الله عنها خرجت من مكة إلى (البصرة) ومعها (طلحة بن عبيد الله) و(الزبير بن العوام) رضى الله عنهما ، ومعهم جمع من الصحابة يطالبون (عليًا) بالثأر لعثمان ، فاضطر سيدنا (علىّ) إلى التوجه إلى (البصرة) أملاً فى إخماد الفتنة سلماً، ولكن قضاء الله لابد أن ينفذ ، فكانت موقعة (الجمل) سنة ٣٦هـ ضربة أخرى من أعداء الإسلام للمسلمين [٣] .

ثم كانت موقعة (صفين) سنة ٣٧هـ بين (علىّ) رضي الله عنه وشيعته وبين (معاوية) رضي الله عنه الذى أصرّ على الخروج على الخليفة (علىّ) رضي الله عنه ، وكانت مسألة (التحكيم) فقد اختار أصحاب علىّ (أبا موسى الأشعرى) نائباً عن (علىّ)، واختار أهل الشام (عمرو بن العاص) نائباً عن معاوية رضوان الله عنهم أجمعين .

ولا صحة لما يذكره كثير من المؤرخين من أن عمراً خدع أبا موسى الأشعرى فجعله يخلع علياً ومعاوياً . ثم جاء هو وخلع علياً ، وثبّت معاوية فى الخلافة؛ لأن هذه ليست أخلاق من ربّاهم النبى ﷺ .

وهل كان (معاوية) خليفة أو خرج من أجل الخلافة حتى يخلعه أو يثبته (عمرو بن العاص) ؟

وقد نبّه إلى ذلك الإمام ابن كثير [١] ، والقاضى أبو بكر بن العربى الذى عقب على هذه الرواية بقوله : « هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ، ووضعته التاريخية للملوك فتوارثته أهل المجانة » [٢] .

وإنما اتفق الحكمان على أن يعهدوا بأمر خلافة المسلمين إلى من بقى من كبار

---

(١) البداية والنهاية ٧ / ٣٨٥   (٢) العواصم من القواصم ص ١٧٩

(٣) معلوم أن السيدة عائشة رضى الله عنها ندمت بعد ذلك على خروجها إلى البصرة واشتراكها فى الفتنه ، كما أن علياً رضى الله عنه سار بين القتلى بعد انتهاء معركة الجمل ، يضرب فخذيه بيديه ويقول : ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا .

الصحابة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . ليختاروا من بينهم خليفة، كما حدث من قبل فى اختيار عثمان رضى الله عنهم .

ولكن بمجرد أن وافق (علىّ) على قبول التحكيم انقسم رجاله فرقتين :

فرقة بقيت معه ، وهم (الشيعة) الذين يرون أحقيته فى الخلافة لقرابته لرسول الله ﷺ ، ومصاهرته له ، ومؤخاته له ، ولعلمه ، وفضله .

وفرقة خرجت عليه . وقالوا : (لاحكم إلا لله) فقال علىّ قولته المشهورة (كلمة حق أريد بها باطل) وكَفروا علياً ، والحَكمين ، وكل من رضى بالتحكيم . فسموا بـ (الخوارج) لخروجهم على (علىّ) رضي الله عنه .

وتجمّع الخوارج فى قرية (حروراء) فسموا بـ (الحرورية) .

وكان لأصحاب النفوس المريضة دور خبيث فى انقسام معسكر (علىّ) رضي الله عنه .

والخوارج بلاء خطير أصيبت به هذه الأمة ، ظهر أثره فى كثير من الفرق والجماعات الإسلامية خلال التاريخ .

* * *

٧ - وتجنّب هذه الفتن جماعة من الصحابة ، وكرهوا الخوض فى شأن المتنازعين، وأرجئوا الحكم فيهم إلى الله تعالى . فسموا بـ (المرجئة) منهم عبد الله بن عمر ، وسعد بن أبى وقاص ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد رضى الله عنهم .

وكان للمرجئة بعد ذلك آراء منحرفة فى العقيدة .

وبهذا ظهرت وسط الجماعة الإسلامية فرق ثلاث : الشيعة ، والخوارج، والمرجئة ، والخلاف بينها يدور فى أساسه حول مسألة الخلافة والحكم .

فهى أشبه بالأحزاب السياسية ، ثم كان لها آراء فى مسائل العقيدة .

* * *

٨ - ودبّر الخوارج مؤامرة لاغتيال (علىّ) و(معاوية) و(عمرو ب نالعاص)

فهم سرُّ شقاء المسلمين فى نظرهم . فقتل (عبد الرحمن بن ملجم) علياً بالسيف فى المسجد وقت أن كان ينادى لصلاة الفجر فى رمضان سنة ٤٠ هـ. ونجا من الاغتيال معاوية ، وعمرو بن العاص رضى الله عنهم أجمعين .

وبايع أهل العراق سيدنا (الحسن بن على بن أبى طالب) رضى الله عنهما بالخلافة بعد موت أبيه، لكنه بعد ستة أشهر فوَّض الأمر إلى (معاوية) توحيداً لصفوف الأمة وجمعاً لكلمتها . وبذلك تحقق ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ عندما قال عنه : (إن ابنى هذا سيد . ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين)(١) .

وبتنازل سيدنا (الحسن) عن الخلافة صار (معاوية) إماماً للمسلمين ، وأول ملك عليهم ، وخير ملوكهم رضي الله عنه .

وبذلك انتهت خلافة النبوة ، وبدأ الملك . كما أخبر رسول الله ﷺ حيث قال : « خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتى الله الملك من يشاء »(٢).

فقد كانت خلافة أبى بكر : سنتين وثلاثة أشهر .

وخلافة عمر بن الخطاب : عشر سنين وستة أشهر .

وخلافة عثمان بن عفان : اثنتى عشرة سنة .

وخلافة على بن أبى طالب : أربع سنين وتسعة أشهر.

يضاف إليها ستة أشهر وهى المدة التى قضاها الحسن بن على فتصير ثلاثين سنة ؛ لأن وفاة النبى ﷺ كانت فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة، وتنازل الحسن لمعاوية كان فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين هجرية .

❊ ❊ ❊

٩ – كان معاوية رضي الله عنه يشعر أن توليه الخلافة ليس محل رضا وارتياح

---

(١) رواه البخارى فى ك الفتن – الفتح ١٣/ ٦٦

(٢) رواه أبو داود فى ك السنة ب فى الخلفاء ٥/ ٣٧

من جميع النفوس فى الأمة ، لذلك نراه يذيع على المنابر حديثا نبويا شريفا ليثبت فى أذهان الناس أن خلافته إنما هى بقضاء الله وقدره ، فليس لمسلم أن يعترض .

روى الإمام البخارى عن ورَّاد مولى المغيرة بن شعبة قال : (كتب معاوية إلى المغيرة : اكتب إلىَّ ما سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة ، فأملى علىَّ المغيرة . قال : سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وقال (ابن جريج) : أخبرنى عبدة أن ورادا أخبره بهذا . ثم وفدت بعد إلى معاوية ، فسمعته يأمر الناس بذلك القول)(١) .

اللهم لا مانع لما أعطيت ، وقد أعطيت معاوية وبنى أمية الخلافة ، فلا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، وقد منعت الخلافة عن علىّ وشيعته فلا معطى لما منعت .

هكذا شجع بنو أمية فكرة : (الجبر) تبريراً لمظالمهم مما دفع بعض الناس ليقولوا: إن هذا خطأ ، والإنسان حر مختار .

من هؤلاء (معبد بن عبد الله الجهنى) التابعى الذى قام بالرد عليهم مبيناً أن القدر لا ينفى اختيار الإنسان مدافعاً عن شرعية التكاليف، حتى بالغ وقال : « لا قدر والأمر أُنف » وثار على بنى أمية ، فقتله الحجاج صبراً فقد حبسه ومنع عنه الطعام والشراب حتى مات سنة ٨٠ هـ .

مات (معبد) ولكن بعد أن وضع بذرة مذهب (الاختيار) أو فرقة:(القدرية) أى النافين للقدر وهم الذين تبرأ منهم (عبد الله بن عمر) رضى الله عنهما .

وإذا كان لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى المقدار مضاد له فى الاتجاه ، فإننا

---

(١) رواه البخارى فى ك القدر ب لامانع لما أعطى الله – الفتح ١١/ ٥٢١

نرى أن المغالاة فى القول بالاختيار قد دفعت إلى مغالاة فى القول بالجبر.

فقام (الجعد بن درهم) ت حوالى ١١٨ هـ و (جهم بن صفوان) ت ١٢٨ بالرد على الاختياريين، وتأسيس فرقة (الجبرية) أو (الجهمية) نسبة إلى جهم بن صفوان.

* * *

١٠ – بذلك يكون قد ظهر فى البيئة الإسلامية خمس فرق: الثلاثة الأولى حول قضية الخلافة.

والرابعة والخامسة حول قضية الجبر والاختيار.

والتمس أتباع كل فرقة فى القرآن الكريم، والسنة المطهرة ما يؤيد مذهبهم بالحق أو بالباطل، ويدحض مذاهب مخالفيهم.

وكانت الفرق مرتعاً خصباً لمن لا يُضمِرُ خيراً للإسلام، ينشر من خلالها الآراء التى تُشوِّه صفاء العقيدة الإسلامية، وخاصة بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية، ودخل فى الإسلام من لا يجيد لغة القرآن الكريم، ولا يتذوق لسان من أوتى جوامع الكلم ﷺ.

وكان من الموضوعات التى ثار حولها الجدل: (صفات الله تعالى):

وردت آيات قرآنية، وأحاديث نبوية ربما أوهم ظاهرها المشابهة بين الله وخلقه فى ذاته أو صفاته جل فى علاه.

كما وردت آيات وأحاديث أخرى تنزه الله عن ذلك.

أما أصحاب الإيمان الحق، فَغَلَّبُوا آيات وأحاديث التنزيه، وآمنوا بآيات وأحاديث الصفات، وأمرُّوها كما جاءت.

وأما الذين فى قلوبهم زيغ، فشبَّهوا ذات الله بذات غيره، أو شبَّهوا صفاته بصفات خلقه، وعُرِفَ أصحاب هذا الاتجاه بـ(المُشَبِّهة) وكان لأعداء الإسلام دورهم فى إشاعته بين المسلمين على يد رواة الأعراب، وبسطاء الموالى الآخذين من

النحل السابقة فجوزوا على الله الحركة والانتقال، والحد، والجهة، والاستقرار، والقعود، والإقعاد، و غير ذلك مما يتنزه الله عنه.

* * *

١١ – وكان علماء أهل السنة يجلسون فى المساجد، يُعَلِّمون الناس العقيدة الصحيحة، ويردون على الشبهات التى يثيرها أهل الأهواء، ومن هؤلاء الإمام التابعى (الحسن البصرى) ٢١–١١٠هـ الذى أحبه الناس لجلالة علمه وعظيم ورعه، واحتشدوا حوله فى مسجد (البصرة) يسألونه، ويستفتونه، وله رسالة فى القدر طبعت أخيراً.

وتكلم عنده يوماً بعض دهماء الرواة بأخبار التشبيه والتجسيم. فقال: ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة أى طرفها، فسموا (الحشوية).

ودخل عليه رجل أثناء الدرس يقول له: يا إمام الدين، ظهر فى زماننا جماعة يكفرون مرتكب الكبيرة، وهم الخوارج، وجماعة يرجئون الحكم عليه وهم المرجئة؟

وقبل أن يتكلم (الحسن البصرى) إذا أحد تلاميذه وهو (واصل بن عطاء) ٨٠–١٣١ هـ يجيب قائلا: «أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق. بل هو فى منزلة بين المنزلتين» أى الإيمان والكفر.

واعتزل (واصل) حلقة (الحسن البصرى) فسُمِّى هو ومن تبعه بـ(المعتزلة).

ومن كتب (واصل) التى سجلها له التاريخ: (أصناف المرجئة) و (معانى القرآن) و (المنزلة بين المنزلتين) و (طبقات أهل العلم والجهل) وغيرها.

وكان زميله (عمرو بن عبيد) ٨٠–١٤٤ هـ عالماً زاهداً شجاعاً فى الحق يقال إنه صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين عاماً. ومن كتبه: (الرد على القدرية) و (كتاب فى العدل والتوحيد).

وقد أبلى المعتزلة بلاء حسناً فى الدفاع عن عقائد الإسلام ضد الهجمات الشرسة

التى شنَّها الزنادقة . واليهود ، والنصارى ، وسائر الأديان التى نسخها الدين الخاتم .

ولما وجدوا أعداءهم يتسلحون بسلاح (المنطق) تعلموه ، ليدافعوا به عن الإسلام، ولما تُرجمت (الفلسفة اليونانية) درسوها، وخلطوها بعلومهم .

وكسب المعتزلة عقول الخلفاء ، ففرضوا الاعتزال على الناس قرابة مائتى سنة . ولكن (المحدِّثين) و(الفقهاء) رفضوا منهج المعتزلة العقلى ، وتأويلهم للنصوص الدينية . مما سبب لهم بعض النكبات والأزمات ، كمحنة الإمام (أحمد بن حنبل) ت ٢٤١ هـ رحمه الله .

ويظن بعض المعاصرين أن المعتزلة هم أصحاب الفكر الحر فى الإسلام ، وأنصار تحكيم العقل . والواقع أن المعتزلة كان جهدهم فيما وراء الطبيعة : وهى مسائل جدلية إذا أخذناها بالعقل بعيداً عن الوحى المعصوم ، وقد أثار المعتزلة معارك لا معنى لها . كخلق القرآن .

وللأسف هم من أول من استخدم فى الإسلام العنف والتعذيب ضد معارضيهم فى الفكر ، ولم يسبقهم فى هذا المجال سوى الخوارج .

وبعد انهزام الفكر الاعتزالى أمام الفكر السُّنى الحُرِّ ازدهرت العلوم الكونية، وكانت الحضارة الإسلامية .

* * *

١٢ – ومن قبل ذلك كان الإمام (أبو حنيفة النعمان) ٨٠ – ١٥٠ هـ يجادل الخوارج ، والروافض ، والمعتزلة ، وأهل الإرجاء ، وألَّف : (الفقه الأكبر) و (الفقه الأوسط) و (الوصية) و (رسالة إلى أبى عثمان البتى) فى الإرجاء وكتاب (العالم والمتعلم) .

كان – رحمه الله – يجادل أهل الباطل ، ويؤلف فى بيان عقيدة أهل السنة . وفى الرد على مخالفيها ، وإن كان قد كره الاسترسال فى الجدل ، والإكثار من

المناظرة ، حتى إنه نهى ولده (حماداً) عن ذلك .

ولما قال له (حماد) : رأيتك وأنت تتكلم – أى تناظر – فما بالك تنهانى؟

فقال : يا بنى ، كنا نتكلم ، وكل واحد منا كأن الطير على رأسه مخافة أن يزل صاحبه ، وأنتم اليوم تتكلمون ، وكل واحد يريد أن يزل صاحبه ، ومن أراد أن يزل صاحبه ، فكأنه أراد أن يكفر ، ومن أراد أن يكفر صاحبه ، فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه »[١] .

فالإمام رحمه الله يخشى على ولده من الغرور ، ويخاف عليه من الهوى والضلال .

وكان الإمام (محمد بن إدريس الشافعى) ١٥٠ – ٢٠٤ هـ – رحمه الله – له جهد عظيم مشكور فى بيان عقائد الإسلام الصحيحة ، والرد على الزائغين ، ومناظرة المنحرفين ، كما فصَّلناه فى كتابنا (الإمام الشافعى وعلم الكلام) .

* * *

١٣ – ونريد أن نؤكد هنا على عامل هام فى نشأة الآراء الكلامية التى فرقت الأمة – وكنا قد أشرنا إليه من قبل – وهو دور أصحاب الديانات السابقة .

فقد ذكر المؤرخون أن اليهودى (لبيد بن الأعصم) الذى سحر النبى – ﷺ – والذى كان يقول بخلق التوراة : هو الذى قال بخلق القرآن ؛ ثم أخذ هذه المقالة عنه ابن أخته (طالوت) وأخذها من طالوت (بيان بن سمعان) ومنه أخذ (الجعد بن درهم) هذه المقالة ونشرها بين المسلمين [٢] .

و (بشر المريسى) ت ٢١٨ هـ أحد الدعاة إلى خلق القرآن كان أبوه يهودياً . وفى رواية لابن قتيبة أن أول من قال بخلق القرآن هو (المغيرة بن سعيد العجلى) ت ١١٩ هـ وكان من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى .

(١) انظر : (مفتاح السعادة) نطاش كبرى زاده ٢ / ١٥٣ و (إشارات المرام) ص ٣٥

(٢) انظر : (البداية والنهاية) لابن كثير ٩ / ٣٦٤

كما أن الخلفاء استعانوا باليهود والنصارى فى إدارة شئون الدولة لخبرتهم، وجهل المسلمين بعلوم الإدارة .

فقد كان (سرجون بن منصور) الرومى النصرانى كاتباً لسيدنا معاوية رضي الله عنه .

وخدم (يحيى الدمشقى) الأمويين زمناً . وهو قديس نصرانى ، له كتبه وفكره .

وكان يزيد بن معاوية يعتمد فى الرد على خصومه على (الأخطل) الشاعر، وهو رجل نصرانى .

وكانت المناظرات تُدار بين علماء المسلمين ، وبين النصارى . وبعضها عُقِدَ فى مجالس الخلفاء .

وكان للفُرس وجودهم الواضح على الساحة : فكثرت المناظرات بين المسلمين وبين (السُّمَنِيَّة) و(الثنوية) . وقد ناظر عمرو بن عبيد (جرير بن حازم الأزدى) وهو من السُّمَنِيَّة ، واشترك واصل بن عطاء مع عمرو بن عبيد فى مناظرة (بشار بن برد)و(صالح بن عبد القدوس) وهما من الثنويَّة .

* * *

١٤ – ونعود إلى المعتزلة وإلى حلقاتهم العلمية ، لنلتقى مع أحد مشايخهم الكبار ، وهو (أبو على الجبائى) ٢٣٥–٣٠٣ هـ فقد جلس يُدَرِّس فى المسجد عقيدة من عقائدهم ، وهى القول بوجوب فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى للعبد ، فتقدم أحد تلاميذه . وهو الإمام (أبو الحسن الأشعرى) ٢٦٠–٣٣٠هـ وسأله عن ثلاثة إخوة : مات أحدهم كبيراً مطيعاً ، والآخر كبيراً عاصياً ، والثالث صغيراً ؟

فقال الجبائى : الأول يثاب بالجنة ، والثانى يعاقب بالنار ، والثالث لا يثاب ولا يعاقب .

فقال له الأشعرى : فإن قال الثالث : يارب لم ...

فأطيعك ، فأدخل الجنة ؟ ماذا يقول الرب ؟

قال الجبائى : يقول الرب : إنى أعلم أنك لو كبرت عصيت ، فتدخل النار، فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً .

فقال الأشعرى : فإن قال الثانى : يارب لِمَ لَم تمتنى صغيراً ، فلا أدخل النار ماذا يقول الرب ؟

فبهت الجبائى .

هكذا انهار مذهب المعتزلة أمام الأشعرى وأمام الحاضرين ، مما جعله يعيد النظر فى كل الآراء الاعتزالية التى عاش معها أربعين سنة من عمره .

ويقال : إنه رأى رسول الله ﷺ فى المنام ثلاث مرات ، يطلب منه أن ينصر سنته .

فقام بإعادة النظر فى الأحاديث النبوية التى أولها المعتزلة . وبدأ بأحاديث شفاعة النبى ﷺ ، وأحاديث رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة فأثبتها . وتوصل إلى منهج وسط فى دراسة أمور العقيدة . لا يهمل فيه النص، ولايجرى وراء شطحات العقل ، فتوسط بين المشبهة الذين يأخذون النصوص بلا فهم ، وبين المعتزلة الذين أطلقوا للعقل العنان فى تأويل النصوص أو ردِّها .

فوحَّد كلمة الأمة ، وألَّف الأشعرى كتباً كثيرة عرض فيها مسائل الإيمان ، وردَّ على مذاهب المخالفين لعقيدة أهل السنة . منها : (الإبانة عن أصول الديانة) و(اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع) و (مقالات الإسلاميين) و (رسالة فى الإيمان) و (إمامة الصدِّيق) و (الرد على المجسِّمة) و (استحسان الخوض فى الكلام) وغيرها .

وتلقت الأمة الإسلامية طريقة الأشعرى فى عرض العقيدة بالقبول . فذاع مذهبه ، وانتشرت كتبه ، وتبعه علماء المسلمين فى معظم العالم الإسلامى فساروا على مذهبه ومنواله . فصار أغلب المسلمين -وما زالوا- أشعرية .

ومن أكابر علماء الأشعرية : الإمام أبو بكر الباقلانى (ت ٤٠٣هـ) والإمام عبد القاهر البغدادى (ت ٤٢٩هـ) وإمام الحرمين الجوينى (ت ٤٧٨هـ) والإمام أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥هـ) والإمام الفخر الرازى (ت ٦٠٦هـ) والإمام ناصر الدين البيضاوى (ت ٦٨٥هـ) والإمام عضد الدين الإيجى (ت ٧٥٦هـ) والإمام سعد الدين التفتازانى (ت ٧٩١هـ) والإمام ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) .

وقد عاصر الإمام الأشعرى فى شرق العالم الإسلامى عالم آخر أسس مذهباً فى العقيدة الإسلامية قريباً فى منهجه من مذهب الأشعرى ، وهو الإمام أبو منصور الماتريدى (ت ٣٣٢هـ) ومن كتبه :(المقالات) و(التوحيد) و (التأويلات فى تفسير القرآن الكريم) و (كتاب بيان وهم المعتزلة) وغيرها .

وقد أفاد الإمام الماتريدى كثيراً من كتب الإمام أبى حنيفة رحمهما الله ، وقد دان بمذهبه كثير من المسلمين فى شرق العالم الإسلامى ، وما زالوا ماتريدية .

ويُمَثِّل كل من أتباع الأشعرى والماتريدى الغالبية العظمى من المسلمين المعاصرين ، ويُعرف مذهبهما بين العلماء بمذهب أهل السنة والجماعة .

* * *

١٥ – وجاء الإمام ابن تيمية (٦٦١–٧٢٨هـ) وقد تأثر كثيراً بحجة الإسلام الغزالى فى نقده للفلاسفة ، وتأثر بالإمام ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) فى نقده للمتكلمين . لكنه كان ألذع أسلوباً ، وأعنف نقداً ، وأشد خصومة لمخالفيه من متكلمين ، وفلاسفة ، وصوفية ، وفقهاء .

وربما كان لظروف حياته الشخصية ، وما انتشر فى المجتمع الإسلامى من بدع وجهالات أثر واضح فى هذه الشدة ، وذلك العنف .

ولذلك سعى (ابن تيمية) ومن بعده تلميذه الإمام (ابن قيم الجوزية) ت ٧٥١هـ . إلى إحياء مذهب السلف كما تصوراه على طريقة الحنابلة المتأخرين .

ولهذا المذهب أتباع معاصرون . ربما ورث بعضهم شيئاً من شدة وقسوة الإمام ابن تيمية على مخالفيه ، وليتهم ورثوا كثرة قراءته وحفظه ، وسعة اطلاعه على مذاهب مخالفيه ، لكان خيراً لهم لو كانوا يعلمون .

ولو التقى اليوم أتباع الأشعرية، والماتريدية ، والتيمية ،وغيرهم من فرق المسلمين ، وأخلصوا النية لله ، وتناسوا (عصبية المذهب) لوجدوا أن مساحة المتفق عليه من (النظرية والتطبيق) أضعاف المختلف عليه . ولكان ذلك أنفع للإسلام والمسلمين ضد حملات المنصِّرين ، والمهوِّدين ، والعلمانيين ، والملحدين . التى تجتاح العالم الإسلامى كله ، وتزداد ضراوة يوماً بعد يوم .

إن ابن تيمية لم يُكفِّر المعتزلة ودائرة الخلاف بينه وبينهم أوسع مما بينه وبين الأشعرية ، بل إنه لم يُكفِّر الخوارج . ودائرة الخلاف بينه وبينهم أشد اتساعاً .

وكثير من هذه المسائل التى هى موضع خلاف بين أنصار الأشعرى وأتباع ابن تيمية موضوعات شائكة لم تُثر على عهد الرسول ﷺ . وليست من فروض الأعيان ، بل هى حكر على الفئة المتخصصة فى علم الكلام . يجب أن يلجم عنها العوام .

١٦ – وما أُلِّف بعد ذلك فى علم التوحيد معظمه شروح لكتب السابقين وحواش ، وتقريرات ، أو تلخيص ومتون ، يحفظها المبتدئون .

وفى العصر الحديث ألف الشيخ (محمد عبده) ١٢٦٦-١٣٢٣هـ (رسالة التوحيد) سلك فيها مسلكاً فريداً فى الأسلوب والعرض . وابتعد عن المشكلات الفلسفية ، وكان يدعو إلى تحرر الأمة من قيد التقليد ، لتستيقظ ، وتعيش عصرها الجديد .

وتتوالى الآن محاولات جادة من علماء الأزهر الشريف لإعادة عرض وصياغة موضوعات (علم التوحيد) فى إطار يتناسب مع لغة العصر سواء كان فى تقرير العقائد ، أو فى الجانب الدفاعى عنها ضد هجمات المغرضين .

الفصل الثالث

الإسلام والإيمان

تمهيد :

عندما سأل جبريلُ رسول الله ﷺ عن معنى الإسلام قال : « الإسلام : أن تشهد أن لا إله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً »

وعندما سأله عن معنى الإيمان قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الأخر ، والقدر خيره وشره »

فبَيَّن رسول الله ﷺ أن الإسلام هو : الأعمال الظاهرية التي يقوم بها اللسان، وسائر الجوارح .

وعرف الإيمان بأنه : التصديق الباطنى بالأمور الستة المذكورة ، والتي ليس منها الخلافة أو الإمامة؛ لأنها مسألة فرعية، وأن محله: القلب .

وأن هذا القدر من التصديق ينقل صاحبه من الكفر إلى هذا الدين . ويجعله ينتفع بشفاعة أرحم الراحمين يوم القيامة ، فلا يخلد فى النار ، لأنه حقق أول درجة من درجات الإيمان ، وإن كان لم يحقق كماله . لأن العمل ليس جزءاً من الإيمان ، بل هو ثمرة له — وإليك التفصيل:

تعريف الإيمان :

الإيمان هو : تصديق النبى ﷺ فيما جاء به من ربه تعالى(1) . إجمالاً فيما عُلم إجمالاً، وتفصيلاً فيما عُلم تفصيلاً.

---

(1) هذا هو المعنى الشرعى للإيمان . أما معناه فى اللغة ، فهو التصديق مطلقاً قال تعالى على لسان إخوة يوسف (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق . وقال تعالى : (ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا) غافر/١٢ أى تصدقوا

وهذا التصديق يجب أن يصل إلى درجة اليقين النفسى ، والإذعان القلبى ، والانقياد لله تعالى . فلا تكفى مجرد معرفة الله ؛ كما قال جهم بن صفوان : تكفى المعرفة .

أ- فقد كان أهل الكتاب يعرفون سيدنا محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، ولم تنفعهم هذه المعرفة ولم تجعلهم مسلمين.

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ البقرة

ب- وأبو طالب عم النبى ﷺ مات كافراً رغم أنه عرف أن الإسلام حق ، قال أبو طالب :

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمد ... من خير أديان البريَّة دِينا

لولا الملامةُ أو حَذار مَسبَّةٍ ... لوجدتَنى سمحاً بذاك مُبينا

جـ- بل إنّ إبليس اللعين يعرف ربَّه . فهل هذه المعرفة جعلته مؤمناً ؟

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) ﴾ الحجر وقال سبحانه :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ ص

فلابد أن يصل التصديق إلى درجة الإذعان ، والانقياد ، والتسليم .

ومكان التصديق هو قلب المؤمن قال تعالى :

- ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ المجادلة/٢٢
- ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ النحل/ ١٠٦
- ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات/ ٧
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة/ ٤١

ومن الأحاديث النبوية الدالة على أن الإيمان محله القلب:

- قال ﷺ : « يامقلب القلوب . ثبت قلبى على دينك »[1].
- وقال ﷺ : « يدخل الله أهل الجنَّة الجنَّة . يدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النَّار النَّار . ثم يقول : انظروا من وجدتم فى قلبه مثقال حبةٍ من خردل من إيمان فأخرجوه »[2].
- ومن أسامة بن زيد قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سريَّة ، فصبَّحنا الحُرَقات من جُهينة ، فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله . فطعنته ، فوقع فى نفسى من ذلك . فذكرته للنبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ: « أقال لاإله إلا الله وقتلته » ؟ قال قلت : يارسول الله . إنما قالها خوفاً من السّلاح . قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا »[3].

* * *

والنطق بالشهادتين علامة تدل على التصديق القلبى ، وهو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية . كالزواج والميراث ، وحل ذبيحته ، والصلاة خلفه ، وعليه ، والدفن فى مقابر المسلمين، فلما كان الإيمان خفياً فى القلب ، كان النطق بالشهادتين علامة تدل عليه . فمن صدّق بقلبه ، ونطق بالشهادتين ، فهو مؤمن عند الله ، فيدخله جنته ، ومؤمن عندنا فنعامله معاملة المسلمين. ومن صدّق بقلبه ، ولم ينطق بالشهادتين، فهو مؤمن عند الله فقط ، وليس

(١) رواه الترمذى فى كتاب الدعوات ٥٣٨/٥.
(٢) رواه مسلم فى الإيمان عن أبى سعيد الخدرى ١٧٢/١
(٣) رواه مسلم فى الإيمان ٩٦/١ ومعنى (فصبحنا الحرقات) أى وصلنا منطقة الحرقات صباحا

﴿ ... بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة /٤١

ومن الأحاديث النبوية الدالة على أن الإيمان محله القلب:

• قال ﷺ : « يامقلب القلوب . ثبت قلبي على دينك »(١).

• وقال ﷺ : « يدخل الله أهل الجنة الجنة . يدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار . ثم يقول : انظروا من وجدتم فى قلبه مثقالَ حبةٍ من خردل من إيمان فأخرجوه »(٢).

• وعن أسامة بن زيد قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سريَّة ، فصبَّحنا الحُرقات من جُهينة ، فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله . فطعنته ، فوقع فى نفسى من ذلك . فذكرته للنبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « أقال لاإله إلا الله وقتلته » ؟ قال قلت : يارسول الله . إنما قالها خوفاً من السلاح . قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا »(٣).

* * *

والنطق بالشهادتين علامة تدل على التصديق القلبى ، وهو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية . كالزواج والميراث ، وحل ذبيحته ، والصلاة خلفه ، وعليه ، والدفن فى مقابر المسلمين، فلما كان الإيمان خفياً فى القلب ، كان النطق بالشهادتين علامة تدل عليه . فمن صدَّق بقلبه ، ونطق بالشهادتين ، فهو مؤمن عند الله ، فيدخله جنته ، ومؤمن عندنا فنعامله معاملة المسلمين. ومن صدَّق بقلبه ، ولم ينطق بالشهادتين، فهو مؤمن عند الله فقط ، وليس

(١) رواه الترمذى فى كتاب الدعوات ٥/٥٣٨.
(٢) رواه مسلم فى الإيمان عن أبى سعيد الخدرى ١٧٢/١
(٣) رواه مسلم فى الإيمان ٩٦/١ ومعنى (فصبحنا الحرقات) أى وصلنا منطقة الحرقات صباحا

مؤمنا عندنا ، فلا نعامله معاملة المسلمين.

قال ابن رجب الحنبلى :«من المعلوم بالضرورة أن النبى ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول فى الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلماً»(١).

٣- **وأما العمل بالشريعة** من الأوامر والنواهى ، فهو شرط كمال للإيمان ، لا يضيع الإيمان بضياعه، ولا يُفقد بفقده ، فالإيمان شئ ، والعمل بالشرع شئ آخر، لأنه لوكان العمل جزءاً من الإيمان ، يكون من قصَّر فى العمل ، زال عنه اسم الإيمان . أما إذا كان شرط كمال ، وثمرة من ثمراته ، فإن من قصَّر فيه يكون ناقص الإيمان ، ولايزول عنه اسم المؤمن. ويتضح ذلك مما يأتى :

أ- الآيات الدالة على الأوامر والنواهى بعد إثبات الإيمان تدل على أن الإيمان شئ والأوامر والنواهى شئ آخر. قال تعالى :

• ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ البقرة/١٨٣

• ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ البقرة/٢٥٤

• ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ آل عمران/ ١٣٠

• ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ المائدة/ ٥١

ب- النصوص الدالة على أن الإيمان والأعمال **أمران مختلفان** . قال تعالى:

• ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ لقمان/٨

• ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ التغابن/ ٩

فعطفُ الأعمال على الإيمان يفيد المغيرة ولو كان العمل الصالح داخلاً في الإيمان، لكان تكرارًا.

وعن أبى هريرة قال: « سئل رسول الله ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ قال: إيمان بالله قال: ثم ماذا ؟ قال: الجهاد فى سبيل الله. قال: ثم ماذا ؟ قال حج مبرور »(٢).

(١) جامع العلوم والحكم ص٧٩
(٢) رواه مسلم فى الإيمان ٨٨/١

مؤمناً عندنا ، فلا نعامله معاملة المسلمين.

قال ابن رجب الحنبلي :«من المعلوم بالضرورة أن النبي ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلماً»[1].

٣- وأما العمل بالشريعة من الأوامر والنواهي ، فهو شرط كمال للإيمان ، لا يضيع الإيمان بضياعه، ولا يُفقد بفقده ، فالإيمان شئ ، والعمل بالشرع شئ آخر، لأنه لوكان العمل جزءاً من الإيمان ، يكون من قصَّر في العمل ، زال عنه اسم الإيمان . أما إذا كان شرط كمال ، وثمرة من ثمراته ، فإن من قصَّر فيه يكون ناقص الإيمان ، ولايزول عنه اسم المؤمن. ويتضح ذلك مما يأتي :

أ- الآيات الدالة على الأوامر والنواهي بعد إثبات الإيمان تدل على أن الإيمان شئ والأوامر والنواهي شئ آخر. قال تعالى :

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ البقرة/ ١٨٣
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ البقرة/ ٢٥٤
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ آل عمران/ ١٣٠
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ المائدة/ ٥١

ب- النصوص الدالة على أن الإيمان والأعمال أمران مختلفان . قال تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ لقمان/ ٨
- ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ التغابن/ ٩

فعطفُ الأعمال على الإيمان يفيد المغيرة ولو كان العمل الصالح داخلاً في الإيمان، لكان تكرارًا.

وعن أبي هريرة قال: « سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال: إيمان بالله قال: ثم ماذا ؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال: ثم ماذا ؟ قال حج مبرور »[2].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٧٩

(٢) رواه مسلم في الإيمان ٨٨/١

ج - النصوص الدالة على أن الإيمان والمعاصي قد يجتمعان. قال تعالى:

- ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ ﴾ الحجرات/ ٩
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ التوبة/ ٣٨
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ البقرة/ ٢٦٤
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ﴾ الحجرات/ ٢

وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« مامن عبد قال: لاإله إلا الله. ثم مات على ذلك إلا دخـل الجنـة. قلـت: وإن زنى، وإن سـرق؟ قـال: وإن زنى، وإن سرق قلت:وإن زنى وإن سرق؟ قال:وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر»[1].

د - جعل الله (الإيمان) شرطاً لقبول العمل الصالح : وشرط الشئ غيره قـال تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ ﴾ الأنبياء/ ٩٤

قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ الإسراء/ ١٩ . قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ المائدة/ ٥ فقد جعل (الإيمان) شرطًا لقبول العمل.

قال الإمام الطبري في بيان معنى الإيمان: " ومن يجحد ما أمر الله بالتصديق به مـن توحيد الله ونبوة محمد ﷺ وما جاء به من عند الله... فقد بطل ثواب عمله الـذي كان يعمله في الدنيا، يرجو أن يدرك به منزلة عند الله"[2].

وروى الطبري عن ابن عباس قوله: "أخبر الله سبحانه أن الإيمان هو العروة الوثقى، وأنه لا يقبل عملاً إلا به، ولا يُحرم الجنة إلا على من تركه"[3]

إن الدين أشبه بشجرة طيبة : تنبت في القلب ، وهذا هو الإيمان ، ثم تمتد

---

(١) رواه البخاري في كتاب اللباس – الفتح ٢٨٣/١٠

(٢) تفسير الطبري ١٠٨/٥.

(٣) السابق ١١٠/٥

فروعها حتى تظهر على اللسان والجوارح . وهذا هو الإسلام .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ إبراهيم

هـ - وقد جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة فى البخارى ومسلم وغيرهما تُصرح بأن الله تعالى يُخرج أقواماً من الموحدين من النار بفضل شفاعته ورحمته . يُسمون : عتقاءُ الله ، أو عتقاء الرحمن « لم يعملوا خيراً قط » هكذا وردت العبارة . هكذا وردت فى البخارى ومسلم

فمما جاء فى حديث الشفاعة: « فيقول الله عزوجل : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قوماً. لم يعملوا خيراً قط . يعرفهم أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه»[1].

وقد وردت هذه العبارة أيضاً فى حديث الرجل الذى أوصى بنيه أن يحرقوه، ويذروه فى البر والبحر : وشك فى قدرة الله على إعادته ، لأنه أسرف فى المعاصى، ولم يعمل خيراً قط . لكن الله تعالى غفر له لخشيته له وخوفه منه. رغم أنه لم يعمل خيراً قط . والحديث فى البخارى فى عدة مواضع ، وفى مسلم، وفى غيرهما[2].

وذلك يدل على أن العمل شرط كمال،وثمرة من ثمرات الإيمان، وليس جزءاً منه. فكل هذه الأدلة تبين أن الإيمان شئ ، والعمل الصالح شئ آخر . إنه غذاء الإيمان وثمرته . كما أن النبات يصنع الغذاء ، ويتغذى على ماصنع .

* * *

٤ - وأما الأحاديث النبوية التى تصرِّح بعدم دخول الجنة من ارتكب بعض

(١) هذه رواية الإمام فى مسلم فى كتاب الإيمان ١٧٠/١
(٢) انظر الحديث فى صحيح البخارى : الفتح أرقام ٣٤٧٨-٦٤٨١-٧٥٠٨، وصحيح مسلم ك التوبة ٢١٠٩/١

المعاصى مما قد يُفهم منه أن العمل بالشرع ركن من أركان الإيمان ، يُفقد الإيمان بفقده ، فهذه الأحاديث من باب الترهيب والمبالغة فى التنفير والزجر عن هذه الذنوب ، وليس المراد نفى الإيمان أو عدم دخول الجنة حقيقة .

من هذه الأحاديث النبوية :

قوله ﷺ : « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا »[1].

قوله ﷺ : « ليس منا من ضرب الخدود ، أو شق الجيوب . أو دعا بدعوى الجاهلية » أى الندب والنياحة كما كان قبل الإسلام[2].

قوله ﷺ : « لايدخل الجنة من لم يأمن جاره بوائقه »[3].

قوله ﷺ : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»[4].

قوله ﷺ : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا »[5].

قوله ﷺ : « لايدخل الجنة نمَّام » [6].

قوله ﷺ : « ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ولامن تشبه بالنساء من الرجال »[7].

قوله ﷺ : « لايدخل الجنة قاطعُ رحم »[8].

قوله ﷺ : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[9].

أى لايفعل هذه المعاصى وهو كامل الإيمان .

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ٩٩/١
(٢) السابق ٩٩/١
(٣) السابق ٦٨/١
(٤) المرجع السابق ٩٣/١
(٥) رواه أحمد فى المسند ٢٠٧/٢
(٦) رواه مسلم فى الإيمان ١٠١/١
(٧) رواه أحمد فى المسند ٢٠٠/٢
(٨) رواه مسلم فى البر والصلة ١٩٨١/٤
(٩) رواه مسلم فى الإيمان ٧٦/١

فمثل هذه الأحاديث ينفى كمال الإيمان ، ولا ينفى أصله وصحته.

* * *

٥- وأما الآيات القرآنية التى تتحدث عن الإيمان ، وتذكر الأعمال مثل: الصلاة ، والزكاة ، والهجرة ، والجهاد ، وحفظ الأمانة .. الخ فهذه الآيات تتكلم عن الإيمان الكامل ، وعن المؤمن الكامل ، وتوضح أن هذه الأعمال علامات على وجود التصديق القلبى الذى هو الإيمان ، والذى ينجى من الخلود فى النار ، من هذه الآيات :

• ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ الأنفال

• ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ الأنفال

• ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ المؤمنون

* * *

٦- وقد ورد عن بعض السلف وعلماء الحديث أنهم قالوا: الإيمان: تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ».

وهذا لايخالف ماسبق ذكره ، لأنهم لايجعلون هذه الامور الثلاثة فى درجة

واحدة، أى لم يجعلوها أركاناً للإيمان . بدليل أنهم لم يكفروا العصاة تاركى العمل بالشرع .وقد ذهب الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى أن هذه الأمور الثلاثة أركان، إنْ اختل واحد منها لم يكن الرجل مسلمًا: حيث قال: "التوحيد لابّد أن يكون بالقلب، واللسان، والعمل. فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلمًا"[(١)]. وكرر ذلك في كتبه، وعليه اعتمدت الجماعات التكفيرية.

وقد نُقل عن الإمام الشافعى رحمه الله أنه قال :(الإيمان هو التصديق، والإقرار، والعمل. فالمخل بالأول وحده : منافق. وبالثانى وحده : كافر. وبالثالث وحده: فاسق. ينجو من الخلود فى النار، ويدخل الجنة)[(٢)].

* * *

٧- وقد خالف أهل السنة فى تعريفهم للإيمان : المعتزلة ، والخوارج : أما المعتزلة فقالوا : الإيمان : تصديق ، وإقرار ، وعمل ، ولكنهم قالوا : إنّ تارك العمل فى منزلة بين المنزلتين . أى بين الإيمان والكفر .

وقولهم هذا مخالف لما أجمعت عليه الأمة قبل ظهور المبتدعةِ ، ولماجاء فى القرآن والسنة من أن الإنسان إما مؤمن أو كافر ، ولا وسط بينهما .

وأما الخوارج فقالوا أيضا:الإيمان تصديق ، وإقرار وعمل . ولكنهم كفروا من لم يعمل بالشرع ، وسنرد عليهم عند الحديث عن مرتكب الكبيرة إن شاء الله .

وأركان الإيمان حددها لنا رسول الله ﷺ فى جوابه لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإيمان فقال (أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[(٣)].

---

(١) كشف الشبهات للشيخ محمد بن الوزهاب ص٢٨ ط. رئاسة إدارات البحوث والإفتاء وص ٣٣ ط دار المطبوعات الحديثة بجدة.
(٢) شعب الإيمان لأسعد الصانمرجى ٤٧٧/١
(٣) رواه مسلم فى الإيمان ٣٧/١

معنى الإسلام فى اللغة :

لهذا اللفظ فى اللغة معنيان :

المعنى الأول : الاستسلام والانقياد.

المعنى الثانى : إخلاص العبادة لله .

ومن **المعنى الأول** قوله تعالى :

- ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

- ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الصافات

ومن **المعنى الثانى** قوله تعالى :

- ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ لقمان

- ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ البقرة

والإسلام بهذين المعنيين الاستسلام لله ، وإخلاص العبادة له — هو دين الله تعالى فى جميع رسالاته إلى خلقه ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران / ١٩

- فسيدنا نوح يقول لقومه : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ يونس

- ويقول الله عن سيدنا إبراهيم : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ آل عمران

- وعندما رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت الحرام قـالا : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ البقرة / ١٢٨

- وعندما حضر يعقوب الموت قال لبنيه : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ البقرة

- وقال موسى لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ يونس

- ويدعو يوسف ربه : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يوسف/ ١٠١

- وقال عيسى بن مريم : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران / ٥٢

هكذا نرى أنّ كل الأنبياء والرسل كانوا يدينون بالإسلام ، ويدعون قومهم إليه . وهو يعنى : الاستسلام لله ، وإخلاص العبادة لله .

ثم صار الإسلام (علماً) على الدين الذى نزل على سيدنا محمد ﷺ ، وصار اسم المسلمين (علماً) على أتباعه بناء على تسمية خليل الله إبراهيم لهم هذا الاسم . قال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ الحج / ٧٨

ومن الآيات القرآنية التى تبين أن الإسلام هو دين سيدنا محمد ﷺ وأنه صار علماً على ماجاء به من ربه ، ولن يقبل من أحد غيره :

- ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران/ ٨٥

• ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ المائدة / ٣

• ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ الأنعام/١٢٥

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ آل عمران

• ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ الأنعام

تعريف الإسلام فى الشرع :

الإسلام هو : الامتثال لأوامر الله ونواهيه .

وهو مبنى على خمسة أركان : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، وصوم رمضان، والحج.

وعلى هذا فالإسلام والإيمان مختلفان ؛ لأن الإسلام الامتثال الظاهرى ، والإيمان التصديق الباطنى . إلا أنهما متلازمان . فلايوجد إسلام معتبر شرعاً بدون إيمان ، ولا يوجد إيمان لايدخل صاحبه النار بدون إسلام .

وإن وُجد إسلام بدون إيمان – كما فى المنافق – فليس هذا الإسلام معتبراً شرعاً ، لأنه لاينجى صاحبه من النار.

واذا تأملنا استعمال القرآن الكريم ، والسنة المطهرة لهذين اللفظين (الاسلام والإيمان) نجد أنهما إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا.

أى إذا اجتمع اللفظان فى نص واحد ، افترق معناهما . فكان الإسلام هو الأعمال الظاهرة ، والإيمان هو الإذعان والاعتقاد الباطنى بأركان الإيمان الستة :

وإذا جاء أحدهما دون الآخر ، شمل معنى الآخر.

مثال اجتماع اللفظين قوله تعالى :

• ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الأحزاب/ ٣٥

• ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ الحجرات/١٤

ففى مثل هذه الآيات للإسلام معنى ، وللإيمان معنى.

ومثال انفراد الإسلام وحده قوله تعالى :

• ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ الأنعام / ١٤

• ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ الأنعام / ١٢٥

وقوله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من اسانه ويده »(١).

ومثال انفراد الإيمان وحده قوله تعالى :

• ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ آل عمران/١٩٣

• ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ البقرة / ٢٥٧

وقوله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»(٢).

فالإيمان فى هذه النصوص يشمل الإسلام .

(١) رواه مسلم فى الإيمان ٦٥/١
(٢) رواه مسلم فى القدر ٢٠٥٢/٤

من علامات الإيمان

• عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لايحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعودَ فى الكفر كما يكرهُ أن يقذفَ فى النار»[1].

• وعنه أنَّ النبى ﷺ قال : « آيةُ الإيمان حبُّ الأنصار ، وآيـة النفـاق بغضُ الأنصار »[2].

• وعنه رضي الله عنه أنَّ النبى ﷺ قال « لايؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه — أو قال لجاره — مايحبُّ لنفسه »[3].

• وعن أبى هريرة قال : جاء ناس من أصحاب النبى فسألوه : إنا نجـدُ فى أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلمَ به . قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعـم . قال: ذلك صريح الإيمان.

• وعن عبد الله قال : سئل النبى عن الوسوسة. فقال: تلك محض الإيمان[4].

• وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يـأتى الشـيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربَّك ؟ فإذا بلغه ، فليستعذ بالله ولينته) . وفى رواية : « فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل : آمنت بالله » [5].

(١) رواه البخارى فى كتاب الإكراه — الفتح ٣١٥/١٢ ومسلم فى الإيمان ٦٦/١
(٢) رواه البخارى فى الإيمان — الفتح ٦٢/١ والنسائى ١١٦/٨
(٣) رواه مسلم فى الإيمان ٦٧/١
(٤) الحديثان رواهما مسلم فى الإيمان أيضا ١١٩/١
(٥) رواه البخارى فى بدء الخلق — الفتح ٣٣٦/٦ ومسلم فى الإيمان ١١٩/١

• وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ « لايؤمنُ عبدٌ حتى أكون أحـبَّ إليه من أهله ، وماله ، والناس أجمعين »[1].

• وعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر: يارسول الله. لأنت أحبَّ إلىَّ من كل شئ إلا من نفسى. فقال النبى ﷺ لا والذى نفسى بيده ، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك فقال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إلىَّ من نفسى . فقال النبى ﷺ : الآن ياعمر[2].

• وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[3].

• وقال ﷺ : « إذا سرّتك حسنتُك ، وساءتك سيئتُك، فأنت مؤمن»[4].

• وقال ﷺ : من أحبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقـد استكمل الإيمان »[5].

• وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أكمل المـؤمنين إيمانـاً أحسنُهم خُلقاً ، وخيارُكم خياركم لنسائهم خلقاً »[6].

• وقال ﷺ : « لايؤمن أحدُكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[7].

(١) رواه مسلم فى الإيمان ٦٧/١
(٢) رواه البخارى فى الايمان والنذور — الفتح ٥٢٣/١٢
(٣) رواه مسلم فى الإيمان ٦٥/١
(٤) رواه الحاكم فى المستدرك ١٤/١
(٥) رواه أبو داود فى كتاب السنة ٦٠/٥
(٦) رواه الترمذى فى كتاب الرضاع ٤٦٦/٣
(٧) كنز العمال ١٠٨٤

الفصل الرابع

الكفـــــر والإكفـــار

معنى الكفر فى اللغة :

معناه : التغطية والستّر والجحود . وضده الإيمان

ويطلق الكفر على جحود النعمة ، فيكون ضد الشكر . قال تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ ابراهيم

ويقال : أكفر فلان فلاناً ، إذا حكم بكفره .

والكفارة : مايغطى الإثم ، ومنه كفارة اليمين ، والقتل ، والظهار .

والتكفير : ستر الذنب وإزالته . كالتمريض : إزالة المرض .

معنى الكفر فى الشرع :

هو : تكذيب النبى ﷺ فى شئ مما جاء به من ربه .

أو هو : جحود شئ مما يصير به المؤمن مؤمناً . ليشمل التعريف الكافر الخالى من التصديق والتكذيب . فالكافر اسم لمن لا إيمان له ، فهو يشمل :

١- من أظهر الإيمان ، وأبطن الكفر . ويسمى : **المنافق** .

٢- من طرأ كفره بعد إسلامه . ويسمى : **المرتد** .

٣- من قال بإلهين أو أكثر . ويسمى : **المشرك** .

٤- من كان متديناً بدين مسوخ . كاليهودية والنصرانيه، ويسمى: **الكتابى**.

٥- من لايؤمن بإله أصلاً ، وييسمى : **المعطّل أو الدُهرى** .

٦- من أسلم لكنه يبطن عقائد تتعارض مع الإسلام ، ويسمى : **الزنديق** .

الكفر نوعان : أكبر وأصغر :

١- **الكفر الأكبر** : هو جحود شئ مما جاء به نبينا محمد ﷺ مما عُلِم من الدين بالضروررة ، أى ثبت بكتاب الله تعالى ، أو بحديث نبوى متواتر ، أو أجمعت عليه الأمة .

وأما ماثبت بأحاديث الآحاد الصحيحة . فيجب الإيمان به ، لكن لايُكفّر من أوّله .كما فعلت المعتزلة مثلاً فى موضوع رؤية الله تعالى ، وحياة القبر ، وبعض مشاهد يوم القيامة : كالصراط ، والحوض ، والميزان .

فمن أنكر وجوده تعالى ، فهو كافر . قال تعالى : ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ الكهف / ٣٧

ومن أنكر توحيده سبحانه ، فهو كافر. قال تعالى : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ المائدة /٧٣ وقال : ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ غافر /١٢ أى : تُصدِّقوا .

ومن أنكر رسالة نبينا ﷺ ، فهو كافر. قال تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ الرعد / ٤٣

ومن أنكر كتابه عز وجل ، فهو كافر . قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ الأحقاف/ ١٠

فهذه الأيات فى (الكفر الأكبر) وهو أكثر وروداً فى القرآن من (الكفر الأصغر) .

وكثيراً مايذكر (الكفر الأكبر) فى الآيات القرآنية مقابلاً للإيمان كما فى قوله تعالى:

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة/٦

• ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ البقرة/١٠٨

• ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ البقرة / ٢٥٣

• ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ التوبة / ٦٦

• ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ﴾ آل عمران / ٨٦

وحكم الكفر الأكبر: أنه يخلِّد صاحبه فى النار ، وأما فى الدنيا فيترتب على حكم القضاء على شخص بالكفر بعد إسلامه أمور منها:

• لاتحل زوجته له ، فلا تبقى فى عصمته .
• لا ولاية له على أولاده : فلا ولاية لكافر على مسلم .
• لاتحل ذبيحته .
• لايرث ، ولا يورث ؛ لاختلاف الدين .
• لايصلى عليه ، ولا يدفن فى مقابر المسلمين .

٢ - الكفر الأصغر :

ويُسمَّى الكفر المجازى ، والكفر العملى ، لأنه يكون فى الأعمال .

وهو : جحود النعمة ، وعدم شكر المنعم سبحانه .

وقد جاء فى القرآن الكريم مقابلاً للشكر كما فى قوله تعالى :

• ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم / ٧

• ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة / ١٥٢

• ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ النمل / ٤٠

ولما حاول اليهودى إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج ، وذكَّرهم بما كان فى الجاهلية . حتى ثار بعضهم الى بعض بالسيوف . نزل قوله تعالى : ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾ آل عمران فليس المقصود الكفر بالله ، ولكن تغطية ماكانوا عليه من الألفة والمودة والنعمة ، وعدم شكر المنعم بها .

وقد سمَّى الشرع بعض الذنوب كفراً تنفيراً من فعلها ، وترهيباً لفاعلها .

والمراد بالكفر : الكفر الأصغر . من ذلك الأحاديث التالية :

• قال ﷺ للنساء « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير »[1].

• قال ﷺ: « من أتى حائضاً ، أو امرأة فى دبرها . أو كاهناً ، فقد كفر بما أنزل على محمد »[2].

• قال ﷺ : « من حلف بغير الله ، فقد كفر »[3].

• قال ﷺ :« لاترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض »[4].

وقد تذكر الأحاديث النبوية أن فاعل بعض الذنوب لايدخل الجنة ، أو أنها عليه حرام مما قد يفهم منه أنه كافر كفراً أكبر . لكن هذه الأحاديث واردة أيضاً للتنفير من الذنوب المذكورة ، فهى من باب الكفر الأصغر .

من هذه الأحاديث :

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان ٨٦/١
(٢) رواه الإمام مسلم فى الإيمان ٨٢/١
(٣) رواه الترمذى فى النذور ١١٠/٤
(٤) رواه مسلم فى الإيمان ٨٢/١

• قوله ﷺ : « من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه . فقد أوجب الله له النار، وحرَّم عليه الجنة »[1]

• قوله ﷺ : « مامن عبد يسترعيه الله رعية . يموت يوم يموت ، وهو غاشٌ لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة »[2] – قوله ﷺ : « لايدخل الجنة نمام »[3]

• قوله ﷺ : « لايدخل الجنة قاطع رحم »[4]

وحكم الكفر الأصغر : أنه معاص وذنوب كبائر يجب التوبة منها. وان مات فاعلها قبل التوبة ، فأمره إلى الله : إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه . وإن أدخله النار ، لايُخلَّد فيها . بل مصيره إلى الجنة .

* * *

الشرك نوعان : أكبر وأصغر :

١ـ **الشرك الأكبر** : وهو اعتقاد وجود شريك لله أو أكثر فى ملكه . والمشرك شركاً أكبر مخلد فى النار .

٢ـ **الشرك الأصغر** : وهو شرك مجازى عملى يكون فى بعض الذنوب والمعاصى . وسماه الشرع شركاً تنفيراً من فعله ، وترهيباً لفاعله . وهو قسمان:

أ ــ شرك أصغر ظاهر : ويكون فى الكلام .كالحلف بغير الله تعظيماً له ، وفى الأعمال .كتعليق التميمة خشية الحسد .

ب ـ شرك أصغر خفى : ويكون فى النية وهو الرياء . كمن يعمل الخير والبر ، ويريد أن يمدحه الناس . فإن الله تعالى لايتقبله من العبد ، ولا يُثيبه عليه . بل عليه أن يتوب منه .

(١) المرجع السابق ١٢٢/١ (٢) السابق ١٢٥/١
(٣) السابق ١٠١/١ (٤) رواه مسلم فى البر والصلاة ١٩٨/٤

ومن الأحاديث النبوية التى وردت فى هذا النوع من الشرك :

• قال ﷺ :« قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه غيرى : تركته وشركه »[1].

قال الإمام النووى : المراد أن عمل المرئى باطل . لاثواب فيه ، ويأثم به.

• قال ﷺ :« إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الاصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء »[2].

• قال ﷺ :« أتخوف على أمتى الشرك ، والشهوة الخفية . قلت : يارسول الله . أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال: نعم . أما إنهم لايعبدون شمساً ، ولاقمراً ، ولاحجراً ، ولاوثناً . ولكن يراؤون بأعمالهم . والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً . فتعرض له شهوة من شهواته ، فيترك صومه »[3].

• قال ﷺ : « الشرك الخفى أن يقوم الرجل بعمل لمكان رجل »[4].

ولما سُئل جابر بن عبد الله ﷺ :أكنتم تعُدُّون الذنوب شركاً ؟ قال:معاذ الله[5].

* * *

النفاق نوعان : أكبر وأصغر:

١ـ **النفاق الأكبر** : هو إظهار الإسلام ، وإخفاء الكفر ، وصاحبه فى الدرك الأسفل من النار ، ولاسبيل لمعرفته والحكم به ؛ لأنه أمر باطنى ، لايعلمه إلا الله تعالى.

٢ـ **نفاق أصغر** : وهو النفاق المجازى العملى . لأنه يكون فى الأعمال . **فهو** ذنوب ومعاصٍ . يجب التوبة منه ، ولايخلد صاحبه فى النار إذا دخلها .كمن إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتُمن خان .

* * *

(١) رواه مسلم فى الزهد والرقائق ٢٢٨٩/٤ (٢) رواه أحمد فى المسند ٤٢٨/٥
(٣) رواه أحمد عن شداد بن أوس ــ المسند ١٢٤/٤
(٤) رواه أحمد فى مسنده ٣٠/٣ (٥) مسند الإمام أحمد ٣٨٩/٣

ومن الأحاديث النبوية التي وردت في هذا النوع من الشرك :

• قال ﷺ :« قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل ع[...] أشرك فيه غيرى : تركته وشركه »[1].

قال الإمام النووى : المراد أن عمل المرئى باطل . لاثواب فيه ، ويأثم به.

• قال ﷺ :« إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الش[...] الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء »[2].

• قال ﷺ :« أتخوف على أمتى الشرك ، والشهوة الخفية . قلت : يارسول الله[...] الشرك أمتك من بعدك ؟ قال: نعم . أما إنهم لايعبدون شمساً ، ولاقمراً ، ولاحجراً ، ولاوثناً . ولكن يراؤون بأعمالهم . والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائ[...] فتعرض له شهوة من شهواته ، فيترك صومه »[3].

• قال ﷺ : « الشرك الخفى أن يقوم الرجل بعمل لمكان رجل »[4].

ولما سُئل جابر بن عبد الله رضي الله عنه :أكنتم تعُدون الذنوب شركاً ؟ قال:معاذ الله[5].

* * *

النفاق نوعان : أكبر وأصغر:

١ - **النفاق الأكبر** : هو إظهار الإسلام ، وإخفاء الكفر ، وصاحبه فى الدرك الأسفل[...] النار ، ولاسبيل لمعرفته والحكم به ؛ لأنه أمر باطنى ، لايعلمه إلا الله تعالى.

٢ - **نفاق أصغر** : وهو النفاق المجازى العملى . لأنه يكون فى الأعمال . فهو ذنوب ومعاصٍ . يجب التوبة منه ، ولايخلد صاحبه فى النار إذا دخلها .كمن إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان .

* * *

(١) رواه مسلم فى الزهد والرقائق ٢٢٨٩/٤ (٢) رواه أحمد فى المسند ٤٢٨/٥
(٣) رواه أحمد عن شداد بن أوس – المسند ١٢٤/٤
(٤) رواه أحمد فى مسنده ٣٠/٣ (٥) مسند الإمام أحمد ٣٨٩/٣

الفسق نوعان : أكبر وأصغر :

١ - فسق أكبر : وهو الكفر . قال تعالى :

• ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ التوبة / ٨٤

• ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ السجدة / ٢٠

٢ - **فسق أصغر** : وهو فعل المعاصى . قال تعالى :

• ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ الأنعام / ١٢١

• ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ البقرة / ١٩٧

• ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ النور/ ٤

ففى هذه الآيات أُطلق (الفسق) على المعاصى والذنوب.

قال الإمام القرطبى: « الفسق فى عرف الاستعمال الشرعى: الخروج عن طاعة [...] عز وجل . فقد يُطلق على من خرج بكفر ، وعلى من خرج بعصيان»[1].

وأخرج البخارى فى باب : (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم) عن حذيفة قال مابقى من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ، ولامن المنافقين إلا أربعة . قال أعرابى : إنكم أصحاب محمد تخبروننا فلا ندرى . فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ، ويسرقون أعلاقنا ؟ قال : أولئك الفُسَّاق .

ففرَّق حذيفة بين : أئمة الكفر ، والمنافقين ، والفُسَّاق .

(١) التفسير ص ٢١٠ ط . الشعب

الفسق نوعان : أكبر وأصغر :

١ - **فسق أكبر** : وهو الكفر . قال تعالى :

• ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ التوبة / ٨٤

• ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ السجدة / ٢٠

٢ - **فسق أصغر** : وهو فعل المعاصي . قال تعالى :

• ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ الأنعام / ١٢١

• ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ البقرة / ١٩٧

• ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ النور/ ٤

ففى هذه الآيات أُطلق (الفسق) على المعاصى والذنوب.

قال الإمام القرطبى: « الفسق فى عرف الاستعمال الشرعى: الخروج عن طاعة عز وجل . فقد يُطلق على من خرج بكفر ، وعلى من خرج بعصيان»[1].

وأخرج البخارى فى باب : (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم) عن حذيفة قال مابقى من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ، ولامن المنافقين إلا أربعة . قال أعرابى : إنكم أصحاب محمد تخبروننا فلا ندرى . فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ، ويسرقون أعلاقنا ؟ قال : أولئك الفُسَّاق .

ففرَّق حذيفة بين : أئمة الكفر ، والمنافقين ، والفُسَّاق .

---

(١) التفسير ص ٢١٠ ط . الشعب

روى الترمذى عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة »[1].

ورواه ابن ماجه بلفظ: « إنّ بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإنّ أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة . كلها فى النار إلا واحدة »[2].

فهم بعض المؤلفين فى العقائد ، والمؤرخين للفرق من الحديث أموراً منها :

١ - أنه يحصر الفرق فى العدد المذكور .

٢ - أنّ كون الفرق المخالفة للجماعة فى النار يعنى أنها كافرة مخلدة فيها.

ونريد أن نناقش هذين الأمرين :

١ - فيما يتصل **بالأمر الأول** نقول: ألا يجوزأن يكون المراد بالعدد المذكور بيان كثرة الفرق وتشعبها ، وزيادة عددها حتى إنها لتزيدعلى فرق اليهود والنصارى.

ويؤيد هذا الاحتمال النظر فى التاريخ والواقع ؛ فإنّ العدد يزيد كثيراً على المذكور فى الحديث . بل مازالت تظهر فرق أخرى فى عصرنا الحاضر .

إذن ليست هناك ضرورة لحصر الفرق فى العدد المذكور.وخاصة أنّ محاولة الحصر تقوم على أسس من التكلف والتمحل . قدنذهب بشئ من بلاغة الحديث الذى يُخبر بالغيب الذى تحقق كما أخبر ، بالإضافة إلى إخباره بغيب قد مضى قبل بعثته ﷺ كان أيضاً كما أخبر . وذلك بشأن افتراق اليهود والنصارى.

---

(١) سنن الترمذى . كتاب الإيمان ٢٥/٥ وقال عنه : حسن صحيح

(٢) سنن ابن ماجة . كتاب الفتن ١٣٢٢/٢ وقال محققه فى الزرائد " إسناده صحيح ,رجاله ثقات .

٢ - وفيما يتصل بالأمر الثانى : وهو كون هذه الفرق فى النار يعنى أنها كافرة مخلدة فيها نقول : إنَّ بعض العلماء فهم ذلك، وحكم بالفعل على الفرق عدا أهل السنة بالكفر والخلود فى النار كما فعل (أبو المظفر الإسفراييني) فى كتابه: (التبصير فى الدين وتمييز الفرق الناجين عن الفرق الهالكين).

وكما فعل (البغدادى) فى كتابه (أصول الدين) وغيرهما .

لكننا لانوافقهم على هذا الفهم ؛ إذ ليس كل من يدخل النار كافراً مخلداً فيها ، فإن عصاةالمؤمنين يدخلونها أيضاً مُدداً تتناسب مع معاصيهم . ثم يخرجون منها إلى الجنة.

ولا يعنى ذلك أننا نحكم على جميع الفرق بالإيمان . فلا يقول بذلك باحث منصف؛ فقد خرجت فرق باعتناقها لبعض الآراء عن حظيرة الإيمان .

إننا لانستطيع أن نحكم بإيمان فرق مثل : الباطنية ، والخطابية ، والدروز ، والنُصيرية.

لكننا نريد فقط أن ننبِّه إلى خطأ المسارعة إلى التكفير . فهناك اتجاه آخرللعلماء يمكن أن نُسَمِّيه اتجاه المتريثين فى الحكم المتورعين عن التسرع فى إطلاق لفظ الكفر فى مقابل الاتجاه الأول (اتجاه المسارعين إلى التكفير) .

<u>ونذكر أمثلة لهؤلاء المتورعين عن التكفير:</u>

١ - قال **الإمام مالك:** « من صدر عنه مايحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حُمِلَ أمره على الإيمان»[(١)].

٢ - وقال **الإمام الشافعى:**« لاأردُّ شهادة أحد من أهل الأهواء إلا الخطابية؛ فإنهم يعتقدون حِلّ الكذب »[(٢)] . وهذا يعنى أنه لم يُكفِّر أهل الأهواء الذين وجُدوا فى عصره رحمة الله .

---

(١) فقه السنة للشيخ سيد سابق ٦٠٣/٣ (٢) شرح المواقف للجرجانى ٣٣٩/٨

٣ - وورد عن **الإمام أبى حنيفة** أنه لم يُكفِّر أحداً من أهل القبلة[(١)].

٤ - وقال **الإمام الأشعرى:** « اختلف الناس بعد نبيهم فى أشياءكثيرة . ضلل بعضهم بعضاً ، وبرئ بعضهم من بعض ، فصاروا فرقاً متباينين، وأحزاباً متشتتين إلا أن الإسلام يجمعهم ، ويشتمل عليهم »[(٢)].

وقال تلميذه زاهر بن أحمد السَّرخسي: لما قُرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد، دعاني فأتيته. فقال: أشهد عليّ أني لا أكفر أحدًا من أهل القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد. وإنما هذا كله اختلاف العبارات[(٣)].

٥- وقال **الإمام الرازى** : « المختار عندنا أنه لايكفر أحد من أهل القبلة إلا بدليل منفصل »[(٤)] وقال :« لاتُكفِّر أحداً من أهل القبلة ؛ لأن كونهم منكرين لما جاء به الرسول غير معلوم ضرورة »[(٥)].

٦ - وقال **الإمام الغزالى** : « والذين ينبغى أن يميل المحصِّل إليه الاحتراز من التكفير ماوجد إليه سبيلاً ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرِّحين بقول : لاإله إلا الله محمد رسول الله خطأ . والخطأ فى ترك الــف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم »[(٦)].

هذه أقوال كبار علماء أهل السنة . يفهم منها التحذير من المســارعة إلى تكفير المسلمين . وخاصة أن المسائل التى كانت مسار خلاف بين الفــرق، والتى ترتب عليها التكفير أغلبها من المسائل الدقيقة التى ماكانت معروفة أيام

---

(٣) المرجع السابق وشرح المقاصد ١٩٧/٢ (٤) مقالات الإسلاميين ٣٤/١
(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي ٨٨/١٥. (٦) أصول الدين ص ١٣٢

رسول الله ﷺ ، ولو كان العلم بها شرطاً للإيمان لذكرها الرسول ، وعلمها للصحابة ، وسأل عنها كل من جاء يعلن إسلامه ، ولكنه ﷺ كان يكتفى منه بالنطق بالشهادتين .

وقد قال ﷺ :« من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم الذى له ذمة الله ، وذمة رسوله . فلا تُخفِروا الله فى ذمته ».

وقال ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله . فإذا قالوها وصلوا صلاتنا ، واستقبلوا قبلتنا ، وذبحوا ذبيحتنا ، فقد حَرُمَتْ علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله »[1].

---

(١) الحديثان رواهما البخارى فى الصلاة ـ الفتح ٥٩٢/١ و (لاتخفروا) أى لاتغدروا وتنقضوا عهد الله وذمته .

مرتكب الكبيرة

المعاصى كبائر وصغائر :

قال تعالى : • ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ النساء/ ٣١

• ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ النجم/ ٣٢

• ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ القمر/ ٥٣

وعن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ : أى ذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال قلت له : إن ذلك لعظيم . قال قلت: ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت ثم أى؟ قال : ثم أن تزانى حليلة جارك[1].

وعن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « الكبائر: الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس »[2].

مكفرات الذنوب :

إذا كان من طبيعة النفس البشرية أن ترتكب بعض المعاصى ؛ لأن الانسان ليس عقلاً فقط ، وإنما هو عقل ومادة ، وغرائز وشهوات ، وروح وجسد ، و « كل بن آدم خطاء »[3] فإن الله شرع وسائل متعددة لتكفير الذنوب ، ومحو الخطايا .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ٩٠/١

(٢) رواه البخارى فى الإيمان والنذور ـ الفتح ٥٥٥/١١

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الزهد ١٤٢٠/٢

حتى لايظل الذنب شبحاً يهدد الإنسان ، فيشل حركته ، ويميت نشاطه . من هذه الوسائل:

١ - **الاستغفار** : وهو طلب المغفرة من الله تعالى . قال عزوجل :﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ النساء

وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ آل عمران

٢ - **التوبة** : وهى الندم على فعل الذنب ، والحزن على ارتكابه ، والعزم على ترك معاودته ، ورد الحقوق إلى أهلها إن أمكن ذلك . قال تعالى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ المائدة: ٣٩

وقال : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ طه

والاستغفار والتوبة إذا اجتمعا افترقا . وإذا افترقا اجتمعا .

فإذا اجتمعا ، كان المقصود بالاستغفار طلب مغفرة ما مضى من الذنوب ، والمقصود بالتوبة طلب وقاية شر مايخافه فى المستقبل من المعاصى . كما فى قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ هود

أما إذا ورد أحد اللفظين دون الآخر . فإنه يشمل كل منهما معنى الآخر. كما سبق.

٣ - **فعل الحسنات** : قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ هود/١١٤

وقال ﷺ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها »(١)

٤ - **مصائب الدنيا**: إذا تلقاها المسلم بالصبر الجميل . قال ﷺ : « ما يصيب المؤمن من وَصَب ولانَصَب ولاسَقَم ولاحزَن . حتى الهمَّ يُهمُّهُ إلا كُفِّرَ به سيئاته»(٢).

وقال ﷺ : « ومايزال البلاء بالعبد ، حتى يمشى على ظهر الأرض ليس ع[ليه] خطيئة »(٣).

تعريف الكبيرة :

الكبيرة : هى الذنب الذى فيه حد فى الدنيا ، أو توعد بالنار أو اللعنة أو الغضب.

ومثالها الأمور المذكورة فى قوله ﷺ :« اجتنبوا السَّبْعَ الموبقات . قيل: يارسول [الله و]هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل م[ال] اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »(٤)

وقد أوصلها الحافظ الذهبى إلى سبعين كبيرة فى كتابه (الكبائر).

حكم مرتكب الكبيرة عند أهل السنة :

يرى أهل السنة أنَّ مرتكب الكبيرة مؤمن عاص ، وأنه إن تاب عنها ، تاب الله عليه ، وإن مات بدون توبة ، فأمره مُفَوَّض إلى الله : إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه تفضيلاً منه . وقالوا : لايُخلد فى النار من أهل التوحيد أحد.

(١) رواه الترمذى فى البر والصلة ٣٥٥/٤
(٢) رواه مسلم فى بر والصلة ١٩٩٢/٤ والوصب: الوجع اللازم. ومنه (ولهم عذاب واصب) أى لازم ثابت . والنصب : التعب . و(يهمه) بضم الياء وفتح الهاء ،أوالعكس.
(٣) رواه أحمد فى مسنده ١٧٢/١ (٤) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ٩٢/١

أولاً : استدلوا على أن مرتكب الكبيرة مؤمن وليس كافراً بما يلي :

١ - قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ البقرة / ١٧٨ فقد جعل القاتل من المؤمنين ، وجعله أخاً لولى القصاص ، والمراد بالأخوة أخوة الدين بلا شك .

٢ - وقال سبحانه: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠ ﴾ الحجرات . فجعل الذين اقتتلوا من المؤمنين واجتمع الإيمان مع المعصية.

٣ - ولم يكفر النبي ﷺ من ارتكب الكبائر من: سرقة، أو زنا، أو شرب خمر، أو قذف محصنة، أو ارتكب الخيانة العظمى التي تمسّ أمن الدولة، وإليك نماذج :

أ - لما سرقت المرأة المخزومية (فاطمة بنت الأسود)، ونهر النبي حِبّه (زيد بن حارثة) عندما حاول أن يشفع لها، أقام عليها الحد. قالت عائشة: « فحسُنت توبتها بعد، وتزوجت، وكانت تأتيني بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى الرسول ﷺ ».[1]

(١) انظر صحيح مسلم ك: الحدود: ١٣١٥/٣.

ب - ولما ارتكب (ماعز) جريمة الزنا، ورجمه النبي ﷺ لم يكفره، وقال عنه: « لقد تاب توبة لو قسّمت على أمة لوسعتهم».

ولما اعترفت (الغامدية) بجريمتها مع ماعز، وأمر النبي برجمها، قام ليصلي عليها صلاة الجنازة، فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟ فقال: « لقد تابت توبة لو قُسّمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم. وهل وجدت توبة أعظم من أن جادت بنفسها لله تعالى»[1] .

ج - وروى البخاري في باب (ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج عن الملة):

عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله، وكان يلقّب حمارًا، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد حدّه في الشراب، فأُتِيَ به يومًا، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه؛ ما أكثر ما يؤتَى به. فقال النبي ﷺ : « لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله».

زاد في رواية: « لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»[2].

د - ولم يحكم القرآن الكريم بالكفر على الذين قذفوا أم المؤمنين عائشة في قصة الإفك، بل رغّب في العفو والصفح، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝٢٢ ﴾ النور/ ٢٢

(١) صحيح مسلم: ١٣٢١/٣.
(١) فتح الباري- كتاب الحدود: ٧٧/١٢.

هـ- ونزل أول سورة الممتحنة في (حاطب بن أبي بلتعة) ﷺ عندما أرسل إلى كفار مكة يتودد إليهم، ويخبرهم بأن النبي يستعد لفتح مكة، فيكشف أسرار الدولة، ومع ذلك وصفه القرآن بالإيمان، و لم يأذن النبي لعمر ﷺ أن يضرب عنقه جزاء هذه المعصية الكبرى، وعفا عنه النبي ﷺ.

ثانياً : استدل أهل السنة على جواز العفو عن مرتكب الكبيرة بما يلى:

١ - قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾
النساء / ٤٨

فعلّق غفران مادون البشرك بالمشيئة ، وغفران الصغائر موعود به ، وكذلك الكبائر بعد التوبة ، فالذى يدخل فى المشيئة هو الكبائر بدون توبة .

قال الإمام البخارى : « المعاصى من أمر الجاهلية ، ولايكفّر صاحبها بارتكابها إلا الشرك؛ لقول النبي ﷺ: إنك امرؤ فيك جاهلية»[1]

والمراد بالشرك فى الآية : الكفر ؛ لأن من أنكر نبوة نبينا ﷺ كان كافراً. ولو لم يجعل مع الله إلهاً آخر .

٢- قال تعالى :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾
الشورى/ ٢٥

٣- وقال سبحانه :﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ الرعد/٦

٤- وجاءت الأحاديث النبوية مؤكدة هذا الحكم . من ذلك :

---

(١) الفتح ١٠٦/١

• عن عبادة بن الصامت أنّ رسول الله ﷺ قال:وحوله عصابة من أصحابه: «تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولاتسرقوا، ولا تزنزا، ولاتقتلوا أولادكم.ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم،ولا تعصونى فى معروف . فمن وفّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله: فأمره إلى الله إن شاء عاقبه. وإن شاء عفا عنه » قال:فبايعناه على ذلك[1].

• وعن أبى ذر عن النبى ﷺ أنه قال : « أتانى جبريل عليه السلام فبشرنى أنه من مات من أمتك لايشرك بالله شيئاً ، دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق[2].

• وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»[3].

• وسأل رجل ابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى؟ قال:« يدنوا أحدُكم من ربِّه ، حتى يضع كنفه عليه فيقول أعملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم . ويقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول: نعم . فيقرره . ثم يقول : إنى سترت عليك فى الدنيا . وأنا أغفرها لك اليوم »[4].

---

(١) فتح الباري: ١٠٦/١.
(٢) رواه مسلم فى الإيمان ٩٤/١
(٣) رواه أبو داود فى كتاب السنة ١٠٦/٥
(٤) رواه البخارى فى التوحيد – الفتح ٤٨٣/١٣

مذهب الخوارج فى مرتكب الكبيرة :

يرى معظم فرق الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر ، وأنه فى الآخرة خالد مخلد فى النار وعلى هذا المذهب كل من رأى أن العمل ركن من أركان الإيمان، يفقد بفقده. كما سبق أن ذكرنا عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب وجماعته.

وكفَّرت فرقة (الأزارقة) — إحدى فرق الخوارج — كل من لم يهاجر إليهم ، وينضم لمبادئهم . وهذا هو : (التكفير والهجرة) .

أدلة الخوارج والرد عليها :

أولاً : استدلوا على أنه كافر بما يلى :

١ - قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ المائدة

أجاب أهل السنة :

بأن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً أكبر : يخرج عن ملة الإسلام. وقد يكون كفراً أصغر ، لايخرج عن الإسلام .

وذلك بحسب حال الحاكم بغير ماأنزل الله : لأنه إن كان منكراً له مستهيناً به بعد ماعرفه وعلمه ، فهو كافر كفراً حقيقياً.

وإن كان مقراً به معتقداً صحته ، لكنه عدل عنه مع اعترافه بتقصيره واستحقاقه عقاب الله ، فهو مسلم عاص ، ويسمى كافراً كفراً أصغر ، أو كفراً مجازياً.

قال ابن عباس فى هذه الآية والآيتين بعدها : « كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ».

وقال أحمد بن حنبل : « كفر لاينقل عن الملة » .

وقد أشار الإمام البخارى إلى أن الكفر أنواع فقال : (باب كفران العشير وكفر دون كفر) .

٢ - قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ آل عمران فتارك الحج كافر خارج عن الإسلام .

أجاب أهل السنة :

بأن من ترك الحج جاحداً وجوبه مستهزئاً به . فهو كافر حقيقة ، أما من تركه كسلاً أو بخلاً أو نحو ذلك ، فهو كافر كفراً عمليا مجازياً.

٣- استدلوا بالأحاديث النبوية التى يُفهم من ظاهرها كفر مرتكب الكبيرة. ومن هذه الأحاديث :

- قال ﷺ : « إذا كفَّر الرجلُ أخاه . فقد باء بها أحدهما »[١]
- قال ﷺ : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر »[٢]
- قال ﷺ :« لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[٣].
- قال ﷺ : « اثنتان فى الناس هما بهم كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت »[٤]

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان ٧٩/١ (باء) أى رجع بكلمة الكفر .
(٢) رواه مسلم فى الإيمان ٨١/١
(٣) المرجع السابق ٨٢/١
(٤) المرجع السابق ٨٢/١

• قال ﷺ : « إنّ بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة »[1].

• قال ﷺ : « من حلف بغير الله ، فقد كفر أو أشرك »[2].

• قال ﷺ : « من أتى حائضاً ، أو امرأة فى دبرها ، أو كاهنا ، فقد كفر بما أنزل على محمد »[3].

أجاب أهل السنة :

بأن المقصود بالكفر فى هذه الأحاديث النبوية وأشباهها الكفر الحقيقى إذا كان فاعل هذه الذنوب مستحلاً لها .

أما إذا كان غير مستحل لها . فالمقصود بالكفر الكفر المجازى ، وهو كفر النعمة والإحسان ، وليس كفر الجحود الذى يُخرج صاحبه من الإسلام ، ولما كانت هذه الأفعال كفعل الكفار والمشركين سماها النبى ﷺ كفراً وشركاً ، فيكون التعبير عنها بالكفر والشرك من باب المبالغة فى التنفير عنها.

قال الإمام البخارى : « المعاصى من أمر الجاهلية ولايُكفَّر صاحبها بارتكابها إلا الشرك لقول النبى ﷺ إنك امرؤ فيك جاهلية »[4].

ثانياً : استدل الخوارج على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار بما يلى:

الدليل الأول : قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾النساء

(١) المرجع السابق ٨٨/١
(٢) رواه الترمذى فى النذور ١١٠/٤
(٣) رواه أبو داود فى الطب ٢٢٥/٤ والترمذى فى الطهارة ٣٤٢/١
(٤) فتح البارى ١٠٦/١

أجاب أهل السنة :

بأن المراد من قتل مؤمناً لإيمانه ، أو لأنه مستحل لقتله ، أو أن المراد بالخلود: المكث الطويل كما هو معناه فى اللغة .

الدليل الثانى : قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ الجن/٢٣

أجاب أهل السنة :

بأن المراد: ومن يعص الله ورسوله فى التوحيد ؛ لأن الآيات فى الحديث عن التوحيد،وليست فى مرتكب الكبيرة . ولفظ المعصية إذا أطلق دخل فيه الكفر. قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ ﴾ هود / ٥٩ وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ المزمل فهى معصية تكذيب، فصاحبها يستحق الخلود المؤبد فى النار .

الدليل الثالث : قال ﷺ : « من تردَّى من جبل فقتل نفسه ، فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً فيها أبداً ، ومن تحسَّى سمّاً فقتل نفسه، فَسُمُّهُ فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة ، فحديدته فى يده يَجأُ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً فيها أبداً»[1].

(١) رواه البخارى فى الطب – الفتح ٢٤٧/١٠ ومسلم فى الإيمان ١٠٣/١ (تحسى سما) أى شربه . (يجأ) أى يطعن . والسم بضم السين ، وفتحها ، وكسرها . أفصحهن الكسر.

أجاب أهل السنة :

بأن العقاب المذكور لمن استحل فعل الأمور المذكورة فى الحديث ؛ لأنه باستحلاله لها يصير كافراً مخلداً فى النار بلا ريب .

أما من انتحر ، وهو يعلم أنه حرام ، وكبيرة من الكبائر . لكنه يطمع فى مغفرة الله ، فهو مسلم عاص أمره مفوض إلى الله : إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه ، ويكون الحديث للترهيب والتنفير عن هذه الجريمة . والعياذ بالله.

وقيل : إن العقاب المذكور هو جزاؤه إن لم يتجاوز الله عنه ، ويعفو عنه .

تنبيه:

رغم خطأ الخوارج في مذهبهم، فإن أهل السنة لم يكفروهم، وفهموا حديث النبي ﷺ عنهم: " يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة" على أن المقصود بالدين: طاعة الإمام المفترض عليهم طاعته.

قال الإمام الخطابي: "أجمع علماء المسلمين على أن الخوارج على ضلالتهم فرقة من فرق المسلمين. وأجازوا مناكحتهم، وأكل ذبائحهم، وقبول شهادتهم.

وسئل عنهم عليّ بن أبي طالب – عليه السلام- فقيل: أكفار هم؟ قال: من الكفر فرُّوا. قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله بكرة وأصيلا، قيل: ما هم؟ قال: قوم أصابتهم فتنة، فعموا وصمّوا.

قال الخطابي: يعني قوله ﷺ: "يمرقون من الدين" أراد بالدين: الطاعة. أي أنهم يمرقون من طاعة الإمام المفترض الطاعة: وينسلخون منها. والله أعلم"[(١)]

---

(١) نقلا عن (لسان العرب) لابن منظور ٢/١٦٩-١٧٠ .

الفصل السادس

وجـــود الله تعالـــــى

هل يحتاج وجوده إلى دليل ؟

انقسم العلماء فى هذا الموضوع إلى فريقين :

فريق يرى أن وجود الله تعالى أمر ضرورى فطرى ، لايحتاج إلى دليل ، لأنه مركوز فى فطرة الإنسان .

وفريق يرى أن وجوده أمر نظرى مكتسب ، يحتاج فى إثباته إلى الأدلة ، ولو كان ضرورياً ما اختلف فيه أحد ، وما كفر بعض الخلق .

ويرى الفريق الأول أن مهمة الرسل كانت لتوحيد الله، لا لإثبات وجوده.

هذه وجهة نظر أولئك الذين رأوا أن وجود الله لايحتاج إلى دليل ، أما تعقيبنا عليها ، فإننا نرى أن عاطفة التدين موجودة فى جميع بنى البشر ، وأن معرفة الله معلومة لكل مخلوقاته ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الإسراء

وقد أيدت الأبحاث العلمية الحديثة هذه القضية ، حيث أثبتت وجود نوع من التدين لدى جميع المجتمعات ، وأن من ينكر وجود الإله ، إنما يستبدل وجود إله بإله.

لكن الإنسان بعد ميلاده يتأثر بعوامل كثيرة ، شرحنا بعضها عند حديثنا عن (ضرورة الدين للإنسان) مثل : البيئة الفاسدة ، والتنشئة الخاطئة : والمصالح المادية ، والميول والأهواء ، ودور إبليس وأعوانه فى هذا الوجود .. هذه المؤثرات تلعب دوراً خطيراً فى انحراف الفطرة الإنسانية .

من هنا احتاج الناس إلى : التنبيه ، وإلى : التذكير .

ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم لتنبِّه ، ولتذكِّر ، وخاصة أن وسائل المعرفة لدى الإنسان من حواس ، وعقل معرضة للخطأ ، وأن موضوع معرفة – وجود الله – أجَلّ من أن يحده شئ ، أو يحصره تصور ، بل إن الوضوح الظاهر، أو الظهور الواضح ، أو القرب القريب ، قد يكون سبباً فى الخفاء والالتباس .

وإن فى انقسام العلماء فى هذه المسألة إلى فريقين مايدل على أنها ليست بدهيَّة ، إذ الضرورى يتفق عليه جميع العقلاء ، ولا يختلف فيه اثنان منهم ، لذلك فإننا سنعرض هنا مجموعة من الأدلة على وجود الله تعالى : سواء اعتبرها القارئ أدلة ، أو اعتبرها من باب التذكير والتنبيه على ما أودع فى الفطرة :

أولاً – دليل الحدوث :

وهو دليل الذى يذكره أغلب علماء العقيدة فى كتبهم[1].

وهو يعتمد على أن العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، فالعالم لابد له من محدث ، وهو الله تعالى .

والمراد بالعالم : كل شئ سوى اله تعالى ، وهو عبارة عن : أجسام وأعراض (صفات) وتوضيح ذلك : أنه يمكن أن نقسِّم الموجود إلى قسمين :

١ – موجود متحيز : أى يشغل قدراً من الفراغ ، وهو إما :

(١) انظر على سبيل المثال : الإرشاد لإمام الحرمين ص ١٧ ، التمهيد للباقلانى ص ٤٤ ، أصول الدين للبغدادى ص ٦٨ ، أبكار الأفكار للآمدى ص ١٤٩ ، المحصل للرازى ص ١٤٧ ، شرح المواقف ٢/٨ ، شرح المقاصد ٤٢/٢

(أ) مركب من جزئيات صغيرة ، لاتقبل الانقسام ، ويسمى : (الجسم).

(ب) أو غير مركب من جزئيات صغيرة ، وإنما هو بسيط لا يقبل القسمة، ويسمى : (الجوهر الفرد).

٢ – موجود غير متحيز : أى لايشغل قدراً من الفراغ ، وهو إما :

(أ) محتاج فى وجوده إلى جسم يقوم به ، ويحل فيه ، ويسمى (العَرَض) مثل : اللون ، والصوت ، والحركة ، والسكون .

(ب) أو غير محتاج فى وجوده إلى جسم يقوم به ، ويحل فيه ، وهو: (الله) سبحانه وتعالى.

والمراد بكلمة (حادث) فى قولنا : (العالم حادث) أنه موجود بعد العدم.

وبيان ذلك : أن الأعراض التى هى صفات الأجسام ، حادثة بالمشاهدة ؛ فإننا نرى حدوث الحركة بعد السكون ، والسكون بعد الحركة ، ونرى تغير لون الأشياء وشكلها ، ومقدارها من حال إلى حال ، وهذا يدل على حدوثها.

وأما الأجسام فهى حادثة أيضاً ؛ لأن أى جسم من الأجسام لايخلو عن الأعراض الحادثة ،كالحركة أو السكون مثلاً ، وما لايخلو عن الحوادث ، فهو حادث.

إذن العالم كله حادث ، وبما أنه حادث ، وموجود بعد العدم ، فهو محتاج إلى من يحدثه ويوجده من العدم ؛ لأنه يستحيل عقلاً أن يوجد حادث بلا مُحدث أو فعل بلا فاعل ، وهذا أمر بديهى ، لايحتاج إلى دليل ، ويعترف به الأطفال فضلاً عن الكبار ، وذلك المُحْدث الذى أحدثه ، وأوجده من العدم

هو (الله) جل فى علاه ، خاصة أنه لم يدَّعِ أحد – خلال عصور التاريخ المختلفة – أنه هو الذى أحدث العالم ، وأوجده بعد أن لم يكن ، ولم يزعم ذلك ، إنما الذى ذكر ذلك على ألسنة رسله هو الله تعالى ، والدعوى تسلم لصاحبها طالما لم ينازعه فيها أحد .

سُئل أعرابى عن الدليل على وجود الله ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، والروث على الحمير ، وآثار الأقدام على المسير . فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج . أما يدل ذلك على العليم الخبير !!

ويمكننا أن نعرض (دليل الحدوث) بطريقة أخرى نعتمد فيها على (الدلالة اللفظية) لكلمتى : المحدِث – بكسر الدال – والمُحْدَث – بفتحها – وذلك أن هاتين الكلمتين من الأمور الإضافية التى لايعقل وجود طرف دون وجود الطرف الآخر ، ووجود المحدَث – بفتح الدال – لاشكَّ فيه ، إننا نراه بأعيننا ، وهذا يدل على وجود المُحدِث – بكسر الدال – وهو الله سبحانه وتعالى.

وقد أشار القرآن الكريم إلى دليل الحدوث . قال تعالى :

- ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ العنكبوت / ٢٠
- ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الأعراف / ٢٩
- ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ الأنبياء / ١٠٤
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأنعام

قد استدل بأفول الكواكب على حدوثها ، فلا تصلح أن تكون رباً ، بل لها مُحدِث وهو الله الذى أحدث السماوات والأرض جميعاً.

ثانياً : دليل الخلق :

ويسمى دليل الإبداع ، ودليل الاختراع ، ودليل الفَطر .

وقد وردت مادة (الخلق) فى القرآن الكريم (٣٣٦) مرة ، تحدث القرآن عن خلق السماوات ، والأرض ، والليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والإنسان، وغير ذلك.

ودليل الخلق يعتمد على مقدمتين :

المقدمة الأولى : أن هذه الموجودات مخلوقة ؛ فإن ذواتنا نحن لم تكن موجودة ، ثم وُجدت ، ولكل منا وقت وُجدَ فيه لم يكن قبله موجوداً ، وكذلك عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعناصر الكون مهما اختلف العلماء فى تقدير أعمارها ، فهم متفقون على أنها لم تكن موجودة ، ثم وجدت .

والقانون الثانى للديناميكا الحرارية (قانون الطاقة المتاحة) أو (ضابط التغير) يثبت أن للكون بداية[1] ، فهو إذن مخلوق .

(١) انظر . وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ص ٥٥ والله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٧.

كما أن فناء الأشياء — كما نراه — يدل على أنها مخلوقة ؛ لأن الأزلى لايفنى، ويقاس عليها مثيلاتها من الممكنات الموجودة ، فهى قابلة للفناء أيضاً ، فهى مخلوقة.

يقول (جون كليفلاند كوثران) رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث: « تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية ؛ إذ أن لها بداية ، وتدلنا الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد ، وعلى ذلك فإن هذا العالم المادى لابد أن يكون مخلوقاً، وهو منذ أن خُلِقَ يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان »(1).

والمقدمة الثانية : وهى كل مخلوق له خالق ، قضية بدهية ، لاتحتاج إلى دليل، وهى مركوزة فى فطرة الإنسان.

إنه إذا وقعت حادثة لم يُدْرَ فاعلها قيل : إن الفاعل مجهول ، ولم يقل أحد قط : إنه ليس لها فاعل ، فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه ؟.

إننا لم نكن شيئاً ، فكنا ، فمن كوننا ؟

(قل الله . ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)(2).

---

(1) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٥

(2) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ٢١

وهذه القضية : (كل مخلوق له خالق) لاتطبق على الله فلايقال : من خلق الله ؟ لأن الله ليس مخلوقاً. فالشئ إما أن يكون خالقاً أو مخلوقاً ، فإن ثبت أنه مخلوق استحال أن يكون خالقاً ، وإذا أثبت أنه الخالق ، استحال أن يكون مخلوقاً.

ونقف قليلاً مع نظرية (النشوء والارتقاء) لداروين تلك النظرية التى يدرسها طلبة الجامعات ، والمرحلة الثانوية (قسم العلوم) بوزارة التربية والتعليم ، ومعاهد الأزهر ، يدرسها الطلبة (إجبارياً) ضمن منهج (الأحياء) ويطبع من الكتاب المقرر الذى يحويها آلاف النسخ فى كل عام(1).

وهى تتعارض مع الإسلام الذى قال بالخلق المباشر للموجودات ، ووجود خالق ، عالم ، مريد ، قادر ؛ إذ يرى أصحاب هذه النظرية ؛ أن الأنواع والأجناس قد نشأ بعضها عن بعض بطريق التطور والارتقاء من البسيط إلى المعقد ، وبقانون الانتخاب الطبيعى ، والبقاء للأصلح ، والوراثة ، حتى وصل التطور إلى (القرد) ومن القرد إلى الإنسان مع وجود حلقة مفقودة بين القرد والإنسان ، ويرون أن ظاهرة الحياة قد نشأت فى المادة فى البداية بطريق الصدفة!!.

ونسارع فنقول : إن هذه ليست نظرية ، إنما هى فرض لم تثبت صحته ؛ فلم يستطع صاحب الفرض ، ولأتباعه التدليل على صحته بأدلة علمية ، وبراهين صحيحة مقنعة .

---

(1) انظر : التاريخ الطبيعى للصف الثالث الثانوى ص ١٦٠- ١٨٣ ط سنة ١٩٧٦م . وقد لاحظت وجود نقد يسير فى الطبعات الأخيرة . انظر طبعة سنة ١٩٩٥ ص ٢٠٢.

كما أنها تتعارض مع ماقرره علم التشريح ، وعلم الأجنَّة[1] ، ومع شهادة الصخور ، ونتائج علم الجيولوجيا[2].

« إن قوانين التكاثر – كل حسب نوعه – تؤيده بقايا الكائنات الحية من كل الأنواع ، والعلم يتفق مع الحقيقة بأن جميع الأجناس قد انحدرت من الزوجين الأصليين.

والحفريات تثبت الظهور المفاجئ ، لمدنيات أرقى ، والعلم يقول بأن الإنسان لايستعمل إلا جزءاً ضئيلاً من مخه، الأمر الذى يعتبر نقداً مباشراً لنظرية الارتقاء؛

لأن الإرتقاء لاينجم عنه أجزاء عديمة النفع ، ولكن الأديان تقول بأن الإنسان كان فى البداية كاملاً ، ويستخدم مخه كله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ التين

ويلاحظ هذا فيما كان يتمتع به قدماء المصريين من معرفة مذهلة ، وفى بناء الأهرامات دليل على قدر من المعرفة ، يقف علماء اليوم مبهورين محاولين فى تواضع أن يكتشفوا سرَّه ، ولكن هذا الكمال الأول قد فقده الإنسان بعصيانه لخالقه ، وماإستتبع ذلك من تدهور فى قواه البدنية والذهنية »[3].

وأعلن (أوستين كلارك) العالم البيولجى .. أنه لاتوجد علامة واحدة على الإِعتقاد بأن أياً من المراتب الحيوانية الكبرى تنحدر من غيره . إن كل مرحلة

(١) انظر : منيرة على الغاياتى . مذهب النشوء والإرتقاء فى مواجهة الدين ص ١٠-١٨ مكتبة وهبة .
(٢) المرجع السابق ص ١٧
(٣) المرجع السابق ص ٢٥

لها وجودها المتميز ، الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة . لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة ، وفى نفس الشكل الذى نراه عليه الآن .

ثم يأتى الدور على النشوئى الشهير (الكونت دى نوى) ليعترف بأن : كل مجموعة ،كل فصيلة تبدو وكأنها جاءت إلى الوجود فجأة . إننا لم نعثر على أى شكل انتقالى ، ومن المستحيل أن ننسب أى مجموعة حديثة إلى أخرى أقدم »[1].

هذا مايقوله المتخصصون فى هذا المجال ، ونوجه إلى أصحاب (النشوء والارتقاء) هذه الأسئلة ، وليس لديهم عنها جواب :

- كيف تفسرون هذا النوع من التطور الارتدادى الذى يتم من المعقد إلى البسيط ، أى عكس مازعمتم من أن التطور يسير من البسيط إلى المعقد ؟
- كيف تفسرون ما نلاحظ من أن التطور لايتم بسرعة واحدة فى الأنواع والأجناس المختلفة ، بل وفى النوع الواحد أيضاً ؟
- كيف تفسرون بقاء (القرد) وانقراض الحيوان الذى كان واسطة بينه وبين الإنسان ؟ أليس القول بالانتخاب الطبيعى ، والبقاء للأصلح ، يقتضى انقراض القرد ، وبقاء الحيوان الواسطة ، والواقع غير ذلك ؟
- كيف تفسرون وجود قدرات متفوقة لدى بعض المخلوقات لايوجد مثلها لدى الإنسان ؟ كقدرة الطيور على الطيران ، وقدرة الضفادع على العيش فى الماء والبر، وقدرة الجمال والحمير على الرؤية فى الظلام . هل هذه الأنواع أرقى من الإنسان !!.

(١) المرجع السابق ص ١٣-١٤ وانظر : (دارون ونظرية التطور) تأليف شمس الدين آق بلوت ترجمة عن التركية أورخان محمد على ط . دار الصحوة .

لقد أعلنت أوروبا عن زيف هذه النظرية بعد أن أدت دورها الذى أشيعت من أجله . وهو بيان التعارض الصريح بين العلوم الطبيعية ، التى أدت إلى التقدم الحضارى فى أوربا ، وبين الدين الذى قدمته الكنيسة للناس خلال قرون، والذى من أجله اضطهد العلماء ، وحكم عليهم بالقتل والسجن والتعذيب ، وحكم على كتبهم ومؤلفاتهم بالإعدام والحرق .

ثم استخدمت دول الاستعمار هذه النظرية فى تحطيم أديان الأمم المستعمرة بعرضها فى ثوب علمى ، حتى ينخدع بها طلاب العلم . ثم تُحدِث آثارها فى التشكيك فى الدين.

وقد ألغيت دراسة هذه (الفرضية) فى الولايات التحدة الامريكية عام ١٩٣٥ م بعد أن ثبت علمياً زيفها ، وأصدر (الكنيست) فى إسرائيل قراراً بتحريم دراستها : (لأنها تتعارض مع عقيدة الخلق كما وردت فى التوراة) هكذا ذكروا ، ونشر هذا فى جريدة الأهرام القاهرية !!

ومع ذلك فإن المسئولين - فى مصر - يصرون على تدريسها للشباب فى هذا السن الذى يتسم بالقلق ، والحيرة ، والبحث عن حقيقة هذا الوجود بينما يعترضون على تدريس الدين الحق فى الجامعات ، ويمارون فى اعتباره مادة نجاح أو رسوب فى المدارس ، إن هذا لشئ عجيب !!

نماذج من عرض القرآن لدليل الخلق :

١ - خلق السموات والأرض :

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ فصلت

ورد الحديث عن خلق السموات والأرض فى حوالى (٤٢) موضعاً من القرآن الكريم - وهذا الموضع أكثر تفصيلاً - حيث بين أنه تعالى خلق الأرض فى يومين ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى يومين آخرين ، وفرغ من السموات فى يومين ، فكان خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، كما صرح بذلك القرآن الكريم فى أكثر من سورة[1] ، وقد كانت السموات والأرض شيئاً واحداً متصلاً ، خلقه الله تعالى من الماء ، فقد قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأنبياء

قال البيضاوى : « أى كانتا شيئاً واحداً ، وحقيقة متحدة ، ففتقناهما بالتنويع والتمييز »[2].

وجاء فى الحديث الشريف : « كان الله ولم يكن شئ غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شئ ، وخلق السموات والأرض »[3].

(١) فى سورة الأعراف /٥٤- يونس /٣- هود /٧- الفرقان /٥٩- السجدة /٤- ق/٣٨- الحديد/٤
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٣٥٤
(٣) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق - الفتح ٢٨٦/٦

وروى ابن جرير عن ابن عباس : أن الله عز وجل كان عرشه على الماء ، ولم يخلق شيئاً غير ماخلق قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق ، أخرج من الماء دخاناً ، فارتفع فوق الماء فسما عليه . فسمى سماء ، ثم أيبس الماء ، فجعله أرضاً ، فالماء أصل لجميع الكائنات .

وقد حدد القرآن عدد السماوات بأنها سبع سموات فقال تعالى:

- ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ الإسراء / ٤٤
- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ المؤمنون
- ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ الملك/٣
- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ نوح

أما الأرض فمع تكرر ذكرها فى القرآن الكريم (٤٦١) مرة إلا أنه لم ترد إلا آية واحدة تشير إلى عددها وهى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ الطلاق /١٢

٢ – خلق الإنسان :

ورد الحديث عن خلق الإنسان فى القرآن الكريم فى (٤٢) موضعاً .

منها مايتعلق بخلق الإنسان الأول سيدنا آدم – عليه السلام – ومنها مايتناول خلق زوجه حواء ، ومنها مايدور حول خلق نسلهما .

أما مايتصل بخلق الإنسان الأول (آدم) فإن القرآن فصَّل ذلك ، وبيَّن مراحل خلقه ؛ ليثبت وجود الخالق ، ويظهر دلائل علمه ، وإرادته ، وقدرته.

بيَّن القرآن (المادة) التى خلق منها آدم ، وكيف تحولت من حال إلى حال، حتى صار بشراً سوياً صالحاً لأن يكون خليفة فى الأرض .

وهذه المادة هى (التراب) قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ آل عمران

و(الماء) قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ الفرقان

ومن التراب والماء كان (الطين) قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾ ص وهو طين (لازب) أى لازق . يلصق باليد . قال سبحانه : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾ الصافات / ١١ واختار منه (سلالة) منتقاة . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ المؤمنون

وهذه السلالة اسودَّت وتغيَّرت ، فصارت (الحمأ المسنون) . قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ الحجر . أى من طين يابس، يصلصل أى يُصوِّت ، كائن من حمأ مسنون ، فهو كالفخار. قال تعالى :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ الرحمن

وبعد ذلك (سوَّاه) أى خلقه ونفخ فيه من روحه.قال سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ص

وأما مايتعلق بخلق زوج آدم (حواء) فقد أجمل القرآن الحديث عنه فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ النساء / ١ . وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ الأعراف / ١٨٩

وبيَّنَ الحديث النبوى أن الله خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام .

وأما حديثِ القرآن عن خلق نسل آدم ، فهو حديث مستفيض ، جاء فى أكثر من موضع ، وكل هذه المواضع تدل على وجود الخالق الأعظم ، ويتسم أسلوب العرض بالدقة الدقيقة ، والجمال الأخاذ ، والإعجاز العلمى .

من هذه المواضع قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ المؤمنون

وإذا فهمنا أن المراد بالإنسان فى هذا النص المبارك هو الإنســان الأول — سيدنا آدم عليه السلام — فإنه خلق من سلالة من الطين على النحو الذى وضحته الآيات الكريمة التى سبق ذكرها .

وإذا كان المراد بالإنسان عموماً آدم ونسله ، فإن العلم الحديث أثبت أن جسم الإنسان يتكون من العناصر التى يتكون منها التراب « فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ، والأيدروجين ، والفوسفور ، والكبريت ، والأزوت، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والمغنسيوم ، والحديد ، والمنجنيز ، والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك،

والسليكون ، والألمونيوم ، وهذه نفسها هى العناصر المكونة للتراب ، وإن اختلفت نسبها فى إنسان عن آخر ، وفى الإنسان عن التراب إلا أن أصنافها واحدة »(١).

ومن هذه العناصر يتكون الغذاء ، ومنه تكون النطفة التى هى عبارة عــن منى الذكر ، وبييضة الأنثى .

إنها خلية واحدة ، ولكنها الدليل على وجود الخالق جل فى علاه ، وهل تجد أدق من وصف رحم الأم بالقرار المكين ؟

وتبدأ هذه الخلية الواحدة تنمو وتتكاثر، فمنها يتكون اللحم ، والعظــم ، والجلد ، والأنسجة ، والغضاريف ، والسوائل ، والأجهزة المتنوعة المختلفــة للإنسان، والعجيب أن هذه الخلية الواحدة تحمل الصفات الوراثيــة ســواء كانت جسمية ، أو عقلية ، أو نفسية !!

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ الطارق . ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ المرسلات

« انظر إلى الجنين : كيف يتغذى فى بطن أمه ، وكيف يتنفس ، وكيف أن الحبل السرى الذى يربطه بأمه ليتغذى به منها ، قد روعى عند تكوينه مايحقق الغرض الذى تكون من أجله دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه ، أو قصر

---

(١) الله والعلم الحديث لعبد الرازق نوفل ص ١٨٣

قد يؤدى إلى اندفاع الغذاء إليه مما قد يؤذيه . إذا ما فكرنا فى ذلك ، فلا نملك إلا أن نعترف بقدرة الصانع ، ولطف الخالق »[1].

وتأمل كيف هيأ الله للجنين الجو المناسب ، والوضع الملائم ، فأحاطه بثلاثة أغشية صماء ، لاتتأثر بالحرارة الخارجية ، ولاينفذ منها الماء أو الضوء ، ولا تؤذيه رائحة ما فى جوف أمه : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ الزمر

ويوضح لنا سيدنا رسول الله ﷺ معنى قوله تعالى: ﴿ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ فيقول فيما رواه الشيخان : (إنَّ أحدكم يُجمعُ خلقهُ فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتب أربع كلمات : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد).

فتبدأ الأم تشعر بحركة الجنين بعد مائة وعشرين يوماً عند نفخ الروح فيه وهذه الروح هى التى سيترتب عليها التكليف والحساب بعد البلوغ ، وهى تختلف عن الحياة الأولية التى كانت موجودة فى النطفة .

وتأمل كيف خلق الله من المضغة البناء العظمى للإنسان الذى يعطيه شكله المميز ، ويحفظ له قوامه وجعل بين كل عظمتين (مفصلة) تمنحه الحركة الدقيقة المطلوبة سواء أكانت دائرية ، أو فى اتجاه واحد ، أو فى اتجاهين ، ولولا هذه المفاصل لأصبح جسد الإنسان قطعة واحدة ، ووضع حول المفصل سائلاً لزجاً ييسر الحركة ، أشبه بالشحم الذى يوضع للآلات المعدنية ،

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨

وخلق حول العظام (عضلات) لحمية تقوم بتحريكها . مع اختلاف عجيب فى حجم وشكل وعمل كل عظم ومفصل وعضلة !

وتمر أيام الحمل حتى لحظة الولادة ، ولكن كيف يخرج هذا الجنين من هذا المكان الضيق بعد أن كبر حجمه ، وزاد وزنه ؟

إن الله سبحانه وتعالى يهيئ أسباب ذلك : فيفرز الرحم السوائل اللازمة لخروج الجنين إلى الخارج . يقول الحق : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾ عبس

ياأيها الماءُ المهينُ مَن الذى سوَّاكا	ومن الذى فى ظلمة الأحشاء قد والاكا
ومن الذى غذَّاك من نعمائه	ومن الكروب جميعها نجَّاكا
ومن الذى شقَّ العيونَ فأبصرت	ومن الذى بالعقل قد حلاَّكا
ومن الذى تعصى ويغفر دائما	ومن الذى تنسى ولا ينساكا

٣- خلق الطعام :

قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ عبس

رأينا فيما سبق أن الإنسان فى بطن أمه يحصل على غذائه منها عن طريق الحبل السرى . وقبل خروجه من بطن أمه يكون الحق تعالى قد أعدَّ له مصدراً آخر لطعامه ، وهو ثدى أمه الذى يبدأ فيه تصنيع اللبن ، وهو الغذاء الأمثل له بما يحويه من مواد نشوية ، ودهنية ، وبروتينية ، وفيتامينات ، وأملاح .

والذى يختلف تركيبه وتركيزه يوماً بعد يوم ليتناسب مع حجمه ، ومع قدرة معدته على هضمه .

وبعدأن يُتمَّ الرضاعة يكون الله قد هيأ له جهازه الهضمى من فم وأسنان..إلخ . لتناول ماأودعه الله له فى الأرض من نبات وحيوان تكفى لمخلوقات الله. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ فصلت / ١٠

فقد هيأ الله تربة الارض للإنبات بحيث يسهل انتقال مافيها من مواد غذائية إلى بذور النبات : ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ الحجر

وكل بذرة تحمل خصائص نوعها وصنفها ، فتشق الأرض إلى أعلى مكونة: السَّاق ، والفروع ، والثمار ، وتشق الأرض إلى أسفل مكونة : الجذور ، والعروق التى تمتص من التربة الغذاء .

ولابد من مياه الرى ، وإلا بقيت البذور جافة كما هى دون إنبات فاقتضت حكمته تعالى أن تتبخر مياه البحار ، فتصير سحاباً يسقط غيثاً مغيثاً ، تتكون منه الأنهار ، والعيون ، والمياه الجوفية محفوظة فى صحن صخرى ، حتى لاتغور فى أعماق الأرض ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ الملك

وحرارة الشمس عنصر مهم للإنبات . ولكن بقدر معين . لأنها لو كانت ساطعة دائماً ، لاحترقت النباتات . من هنا كانت حكمة خلق الليل والنهار ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ الأنعام

والمادة الخضراء الموجودة فى النبات هى مصانع الغذاء ، حيث تحوِّل المواد المبثوثة فى التربة من ماء وأملاح ومعادن ، وتضيف إليها ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الهواء مع استخدام حرارة الشمس تحول ذلك إلى مواد غذائية صالحة لطعام الإنسان والحيوان .

تأمل قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الأنعام

ثالثاً : دليل التقدير :

نلاحظ أن كل ماتقع عليه حواسنا من موجودات مُقدَّر بقدر معين ، وكل مقدر بقدر معين لابد له من فاعل موجود مختار قادر وهو الله وتعالى.

فمن الذى خصَّ كل موجود بالقدر المحدود الذى هو عليه ؟ وكان من الممكن أن يكون أصغر مما هو عليه أو أكبر.أو يكون أطول أو أقصر أو يكون أصلب أو ألين ، أو يكون أثقل أو أخف ، أو يكون أكثف أو ألطف ، أو يكون أبرد أو أحرّ ، أو يكون أحلى أو أمرّ ، أو يكون أسرع أو أبطأ ، أو يكون أقرب أو أبعد، وغير ذلك من خصائص المادة المحتاجة لكى نوجد إلى من يقدرها بقدرها ، سواء كانت مما يوزن أو يقاس ، أو يكال ، أو يُعد . تأمل قوله تعالى :

- ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ الطلاق
- ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ الفرقان
- ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ الرعد

• ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ الأعلى

ويقول عن الأرض : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ فصلت / ١٠ ويقول : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ ﴾ الحجر

ويقول عن الليل ولانهار : ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ المزمل / ٢٠

ويقول عن الشمس والقمر : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ يس /٣٨

ويقول عن الإنسان ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ﴾ عبس / ١٩

رابعاً : دليل التسخير :

وهذا الدليل يعتمد على مانشاهده فى هذا الكون من تسخير كل أجزائه لخدمة الإنسان ، وموافقة كل عوالمه لوجوده ، وهذا التسخير وتلك الموافقة يدلان دلالة قاطعة على وجود فاعل ، قادر ، حكيم .

• **تأمل تسخير عالم الأفلاك للإنسان . يقول تعالى :**

- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝٢ ﴾ الرعد

- ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ ﴾ الأنعام/ ٩٦-٩٧

- ﴿ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ ﴾ النحل / ١٢

- ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ يس

• **وتدبر تسخير عالم الحيوان والطيور . يقول تعالى :**

- ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ النحل

- ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦ ﴾ النحل

- ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩ ﴾ النحل

- ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦ ﴾ الحج

- ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ ﴾ الزخرف

- ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾ النحل

- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
بَصِيرٌ (١٩) ﴾ الملك

• **وانظر إلى تسخير عالم النبات للإنسان : يقول تعالى :**

- ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن
كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾ النحل

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا
أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا
أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ الأنعام / ١٤١

- ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦)
فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١)
مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾ عبس

• **وفكر فى تسخير عالم الرياح والبحار والأنهار . يقول الحق :**

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ الأعراف / ٥٧

- ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ
بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ الحجر

- ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ
كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾ الروم

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾ النحل

- ﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ
بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ النمل

- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ
ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) ﴾ الشورى

• **وتمعّن فى تسخير أجهزة جسمك وأعضائه لك :**

إن مايسهل استخدامه ، والتحكم فيه ، قد سخره الله لك حسب إرادتك واختيارك : فلك أن تنظر بعينيك ، وأن تخطو بقدميك ، وأن تعمل بيديك ، وأن تنطق بلسانك وشفتيك ، وهكذا .

أما مايصعب على الإنسان التحكم فيه من أجهزته وأعضائه ، فقد سخره الله له اضطراراً ، يعمل ليلاً ونهاراً .

• وتأمل تسخير جهازك (الهضمى) ومافيه من : معدة ، وأمعاء وكبد ، وبنكرياس.

• وجهازك (الدورى) وما فيه من : قلب ، وشرايين ، وأوردة ، وشعيرات.

• وجهازك (التنفسى) ومافيه من : أنف ، وحنجرة ، وقصبة هوائية ، ورئتين. فمن سخر كل ذلك للإنسان . ليس إلا الله ، جلَّ فى علاه .

خامساً : دليل إجابة المضطر :

ويسمى الدليل النفسى ، وهو يعتمد على مايشعر به كل إنسان فى وقت الشدة والضيق ، أو الحيرة والقلق ، أو المرض أو الغرق ، من وجود قادر حنَّان منَّان ، يجيب دعاءه إذا ساله ، ويُفرِّج كربه إذا تضرع إليه ، ويكشف مابه من سوء ، إذا لجأ إليه ، ومن منا لم يمر بمثل هذه الأوقات !!

وكم أجاب الله دعوة المضطر !! تدبر هذه الآيات :

- ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام

- ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الأنعام

- ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ يونس

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ يونس

- ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ الإسراء

- ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النمل

- ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ العنكبوت

- ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ الزمر

مناقشة الماديين :

وبعد أن طوَّفت بك مع هذه الأدلة المختلفة على وجود الله – تعالى – أودُّ أن أقف لحظات مع الماديين لنصفى معهم الحساب فيما يتعلق بهذا الموضوع. والماديون هم الذين لايؤمنون بوجود شئ إلا المادة فقط . فما يُرى بالعين ، أو يُسمع بالأذن ، أو يشم بالأنف ، أو يذاق بالفم أو يلمس بالحس ، هو الموجود ، وغير ذلك ليس موجوداً. ويرون أن وسيلة المعرفة هى التجربة فقط ولا وسيلة غيرها .

فهم يحصرون الوجود فى الأشياء المادية وظواهرها . وإذا أردت إدراك شئ فليس أمامك إلا الملاحظة والتجربة .

وينكر الماديون بناء على ماتقدم وجود إله خالق لهذا الكون ، ومايترتب على وجود هذا الإله من إمكان النبوة ، والبعث ، والخلود ، وما إلى ذلك .

وكثيراً مانسمع منهم أن العالم وجد بالطبيعة ، أو وجد بالصدفة ، وأنه قديم لابداية له ، وسيستمر على غير نهاية ، وأن الدين يتعارض مع مقررات العلم الحديث .

ونريد أن نناقشهم فيما يلى :

١ - هناك أشياء يؤمن بوجودها العلماء الماديون ، ويبنون عليها نظرياتهم ، ولم يرها عالم واحد منهم . مثال ذلك :

الألكترونات التى يؤمن بوجودها العلماء ويؤسسون على وجودها كثيراً من النظريات والمخترعات .

والأثير الذى يتصورنه شيئاً لطيفاً ، لاوزن له ، غير قابل للضغط ، وهو يملأ الوجود كله .

الجاذبية التى يعتبرون وجودها حقيقة علمية ، ويفسرون بها كثيراً من الظواهر.

فماذا يقول الماديون فى هذه الأمور ؟ أيستطيع واحد منهم أن يدَّعى أنه قد رأى شيئاً منها ؟

فلماذا ينكرون وجود إله لانراه الآن ؟ إنما نوقن بوجوده عن طريق أثاره وأفعاله .

يقول علماء الطبيعة : إن الضوء لايرى وإنما نحسه بأثاره ، وعندما اقترب العلماء من الشمس وهى المصدر الطبيعى للضوء .كان المتوقع أن يكون الضوء أقوى وأشد . لكن كان العكس. لم يجدوا ضوءاً قط ، وذلك لعدم وجود شئ يظهر به الضوء كالغبار ، والذرات المائية مثلا .

فالضوء خلق من خلق الله ، ولا يُرى فكيف يستبعد وجود خالق ، لا يرى الآن !!

٢ - وإلى هؤلاء القائلين بأن العالم وُجد بالطبيعة ، نوجه إليهم هذا السؤال: مالطبيعة ؟ ما المقصود بها ؟ وما حقيقتها ؟

هل هى شئ حى أو ميت ؟ قادر أو عاجز ؟ عالم أو جاهل ؟

فإن قالوا : حى قادر عالم ، فهو : الله .

أما إن كان غير ذلك فلا يتصور منه إيجاد أو خلق ؛ لأن فاقد الشئ لايعطيه، وتأمل ماكتبه الشيخ محمد الغزالى :

« دار بينى وبين أحد الملاحدة جدال طويل ، ملكت فيه نفسى ، وأطلت صبرى ، حتى ألقف آخر ما فى جعبته من إفك ، وأدفع بالحجة الساطعة مايوردون من شبهات .

قال : إذا كان الله قد خلق العالم ، فمن خلق الله ؟

قلت له :كأنك بهذا السؤال ، أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لابد لكل شئ من خالق.

قال : لاتلقنى فى متاهات . أجب عن سؤالى .

قلت له : لالف ولا دوران . إنك ترى أن العالم ليس له خالق : أى أن وجوده من ذاته دون الحاجة إلى موجد .

فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلاً . وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا : إن الله الذى خلق العالم ليس لوجوده أول ؟

إنها قضية واحدة . فلماذا تصدق نفسك حين تقررها ، وتكذب غيرك حين يقررها ؟

وإذا كنت ترى أن إلهاً ليس له خالق خرافة ، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك وفق المنطق الذى تسير عليه .

قال : إننا نعيش فى هذا العالم ، ونحُس وجوده ، فلا نستطيع أن ننكره؟

قلت له : ومن طالبك بإنكار وجود العالم ؟

إننا عندما نركب عربة ، أو باخرة ، أو طائرة ، تنطلق بنا فى طريق رهيب، فتساؤلنا ليس فى وجود العربة . وإنما هو : هل تسير وحدها ، أو يُسيرها قائد بصير؟

ومن ثم فإننى أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك : إنه مردود عليك .

فأنا وأنت معترفان بوجود قائم ، لامجال لإنكاره . تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة . وأرى أنه لا أول له بالنسبة إلى خالقها . فإذا أردت أن تسخر من موجود لا أول له ، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين».

٣- أما القائلون بأن العالم وُجِدَ بالصدفة فإننا نقول لهم : من أين للعالم هذا النظام العجيب ، وهذا الترتيب الدقيق الذى يحيّر العقول ، ويدهش الألباب ؟

وإن مايحدث صدفة لايتكرر ، ولولا هذا التكرار المنظم ما استطعنا أن نقيم علماً واحداً من العلوم الطبيعية والرياضية .

« ولقد حسب العلماء احتمال إجتماع الذرات التى يتكون منها جزئ واحد من الأحماض الأمينية - وهى المادة الأولية التى تدخل فى بناء البروتينات واللحوم — فوجدوا أن ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السنين ، وإلى مادة لايتسع لها هذا الكون المترامى الأطراف !!

هذا لتركيب جزئ واحد على ضآلته . فما بالك بأجسام الكائنات الحية جميعاً من نبات وحيوان ، ومابالك بما لايحصى من المركبات المعقدة الأخرى، وما بالك بنشأة الحياة ، وبملكوت السموات والأرض .

إنه يستحيل عقلاً أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء ، أو الخبطة العشواء ، لابد لكل ذلك من خالق مبدع عليم خبير ، أحاط بكل شئ علماً ، وقدر كل شئ ثم هدى »(١).

ولندع الرد على القائلين بأن العالم وجد بالصدفة لكبار علماء الكون المتخصصين فى أدق فروع العلم الحديث ، وفى ردهم أيضاً أبلغ دليل على قضية تعارض العلم والدين

يقول عالم الطبيعة البيولوجية الدكتور (فرانك ألن): « إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة ، ولايمكن تفسيرها على أساس المصادفة ، أو العشوائية ، فالأرض كرة معلقة فى الفضاء ، تدور حول نفسها ، فيكون فى ذلك تتابع الليل والنهار ، وهى تسبح حول الشمس مرة فى كل عام : فيكون فى ذلك تتابع الفصول الذى يؤدى بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة»(٢).

ويقول الدكتور (جون كليفلاند كوثران) رئيس قسم العلوم الطبيعة بجامعة دولث : « هل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من

---

(١) انظر : الله يتجلى فى عصر العلم ص٤
(٢) المرجع السابق ص ٦

وإذا كنت ترى أن إلهاً ليس له خالق خرافة ، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك وفق المنطق الذى تسير عليه .

قال : إننا نعيش فى هذا العالم ، ونحُس وجوده ، فلا نستطيع أن ننكره؟

قلت له : ومن طالبك بإنكار وجود العالم ؟

إننا عندما نركب عربة ، أو باخرة ، أو طائرة ، تنطلق بنا فى طريق رهيب، فتساؤلنا ليس فى وجود العربة . وإنما هو : هل تسير وحدها ، أو يُسيرها قائد بصير؟

ومن ثم فإننى أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك : إنه مردود عليك . فأنا وأنت معترفان بوجود قائم ، لامجال لإنكاره . تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة . وأرى أنه لا أول له بالنسبة إلى خالقها . فإذا أردت أن تسخر من موجود لا أول له ، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين».

٣- أما القائلون بأن العالم وُجِدَ بالصدفة فإننا نقول لهم : من أين للعالم هذا النظام العجيب ، وهذا الترتيب الدقيق الذى يحيّر العقول ، ويدهش الألباب ؟ وإن مايحدث صدفة لايتكرر ، ولولا هذا التكرار المنظم ما استطعنا أن نقيم علماً واحداً من العلوم الطبيعية والرياضية .

« ولقد حسب العلماء احتمال إجتماع الذرات التى يتكون منها جزئ واحد من الأحماض الأمينية - وهى المادة الأولية التى تدخل فى بناء البروتينات واللحوم — فوجدوا أن ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السنين ، وإلى مادة لايتسع لها هذا الكون المترامى الأطراف !!

هذا لتركيب جزئ واحد على ضآلته . فما بالك بأجسام الكائنات الحية جميعاً من نبات وحيوان ، ومابالك بما لايحصى من المركبات المعقدة الأخرى، وما بالك بنشأة الحياة ، وبملكوت السموات والأرض .

إنه يستحيل عقلاً أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء ، أو الخبطة العشواء ، لابد لكل ذلك من خالق مبدع عليم خبير ، أحاط بكل شئ علماً ، وقدر كل شئ ثم هدى »[1].

ولندع الرد على القائلين بأن العالم وجد بالصدفة لكبار علماء الكون المتخصصين فى أدق فروع العلم الحديث ، وفى ردهم أيضاً أبلغ دليل على قضية تعارض العلم والدين

يقول عالم الطبيعة البيولوجية الدكتور (فرانك ألن): « إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة ، ولايمكن تفسيرها على أساس المصادفة ، أو العشوائية ، فالأرض كرة معلقة فى الفضاء ، تدور حول نفسها ، فيكون فى ذلك تتابع الليل والنهار ، وهى تسبح حول الشمس مرة فى كل عام : فيكون فى ذلك تتابع الفصول الذى يؤدى بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة»[2].

ويقول الدكتور (جون كليفلاند كوثران) رئيس قسم العلوم الطبيعة بجامعة دولث : « هل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من

---

(١) انظر : الله يتجلى فى عصر العلم ص٤
(٢) المرجع السابق ص ٦

العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ أو أنها هى التى أوجدت هذا النظام ، وتلك القوانين ، ثم فرضته على نفسها ؟ لاشك أن الجواب سوف يكون سلبياً . بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة،أو تتحول الطاقة إلى مادة ، فإن كل ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة المعروفة التى وجدت قبلها »[1].

ويقول الدكتور (وولتر أوسكار لندبرج) عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية، وعضو ورئيس جمعيات عديدة لدراسة الطعام وتركيبه الغذائى ، ومؤلف سلسلة كتب تركيب الدهون : « إن الطريقة العلمية تقوم على أساس انتظام الظواهر الطبيعية ، والقدرة على التنبؤ بها فى ظل هذا الانتظام ، ونستطيع أن نقول بكل دقة : إن هذا الانتظام فى ظواهر الكون والقدرة على التنبؤ بها — وهما الأساسان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلمية — هما فى الوقت ذاته أساس الإيمان بفكرة وجود الله ، إذ كيف يتسنى أن يكون هنالك كل هذا النظام ، وأنّى يتسنى لنا أن نتنبأ بهذه الظواهر مالم يكن هنالك مبدع، ومدبر ، وحافظ لهذا النظام العجيب »[2].

وهذا عالم آخر حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة مانيسوتا ، ورئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية ، وأخصائى فى الإشعاع الشمسى والبصريات الهندسية والطبيعية يقول : « لقد أتيح لى بفضل اشتغالى بدراسة الطبيعة أن أدرس التركيب المعقد إلى درجة لايتصورها العقل لبعض مكونات هذا الكون الذى لاتقل فيه روعة التذبذبات الداخلية لأصغر ذراته ، ومادون ذراته عن النشاط المذهل لأكبر النجوم السابحة فى أفلاكها ، والذى يسير فيه كل شعاع من

(١) المرجع السابق ص ٢٤
(٢) المرجع السابق ص ٣٣

الضوء ، وكل تفاعل كيماوى أو طبيعى ، وكل خاصية من خواص كل كائن حى وفق قوانين ثابتة ، لاتتبدل ولاتتغير . تلك هى الصورة التى تقدمها لنا العلوم ، والتى كلما تأملها الإنسان ، اكتشف من بالغ دقتها ، وروائع جمالها مالم يكن قد اكتشفه من قبل »[1].

ويقول : « إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله ، وإنما تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها »[2].

وهذا أستاذ آخر تخصص فى وراثة النباتات ، ودراسة شكلها الظاهرى ، وفى الحياة البرية يقول : « إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية فى صغرها ، والتى لايحصيها عد . وهى التى تتكون منها جميع المواد ، كما لاتستطيع العلوم أن تفسر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها : كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكى نكون الحياة»[3].

وتأمل مايقوله مصمم العقل الألكترونى (كلودم.هاثاواى) فى هذا الصدد:

« وليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم ، والإبداع ، والتنظيم. وبرغم استقلال بعضها عن بعض ، فإنها متشابكة متداخلة ، وكل منها أكثر تعقيداً فى كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الألكترونى الذى صنعته. فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى الكيمى البيولوجى الذى هو جسمى ، والذى ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائى فى اتساعهِ وإبداعه إلى مبدع يبدعه؟

إن التصميم ، أو النظام ، أو الترتيب ، أو سمِّها ماشئت ، لايمكن أن تنشأ إلابطريقتين : طريق المصادفة ، أو طريق الإبداع والتصميم وكلما كان النظام

(١) المرجع السابق ص٤٠
(٢) المرجع السابق ص ٤١
(٣) المرجع السابق ص ٥٢

أكثر تعقيداً ، بُعدَ احتمال نشأته عن طريق المصادفة ، ونحن فى خضم هذا اللانهائى لانستطيع إلا أن نسلم بوجود الله »[1].

هذه شهادات طائفة ممن تخصصوا تخصصاً دقيقاً على مستوى عال فى فروع العلم الحديث المتنوعة . فماذا بعد هذا ؟

وتأمل فى هذه المعانى :

قل للطبيبِ تخطفته يدُ الردَى ... ياشافىَ الأمراض :مَن أرداكا ؟
قل للمريضِ نجا وعُوفي بعدما ... عجزتْ فنون الطبِّ: مَن عافاكا؟
قل للصحيح يموتُ لا مِن علة ... مَن بالمنايا ياصحيحُ دهاكا؟
قل للبصير وكان يحذرُ حُفرة ... فهوى بها من ذا الذي أهواكا؟
بل سائل الأعمى مشى بين الزحا ... مِ بلا اصطدامِ مَن يقودُ خُطاكا؟
قُلْ للجنين يعيش معزولاً بلا ... راعٍ ومرعى: مالذي يرعاكا؟
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا ... ء لدى الولادة مالذي أبكاكا؟
وإذا ترى الثعبانَ ينفثُ سمَّه ... فاسأله: من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبانُ أو ... تحيا وهذا السمُّ يملأ فاكا؟
واسأل بطونَ النحل كيف تقاطرت ... شهداً وقل للشهد مَن حلاكا؟
بل سائل اللبنَ المصفى كان بين ... دم وفرثٍ مالذي صفَّاكا؟
وإذا رأيتَ الحيَّ يخرج من حنايا ... ميتٍ فاسأله مَن أحياكا؟
قل للهواء تَحسُّهُ الأيدى ويخفى ... عن عيونِ الناس من أخفاكا ؟
قل للنبات يَجفُّ بعد تعهُّدٍ ... ورعايةٍ: مَن بالجفاف رماكا؟

(1) المرجع السابق ص ٧٩

وإذا رأيت النبتَ في الصحراء يَرْبو ... وحده فاسأله :من أرباكا؟
وإذا رأيت البدرَ يسري ناشراً ... أنواره فاسأله :من أسراكا؟
واسأل شعاعَ الشمسِ يدنو وهي ... أبعدُ كل شيء مالذي أدناكا؟
قل للمرير مِن الثمار مَن الذي ... بالمرِّ من دون الثمار غذاكا؟
وإذا رأيتَ النخلَ مشقوقَ النَّوى ... فاسأله: من يانخلُ شقَّ نواكا؟
وإذا رأيت النار شبَّ لهيبُها ... فاسأل لهيبَ النار: من أوراكا؟
وإذا ترى الجبلَ الأشمَّ مناطحاً ... قممَ السحاب فسله من أرساكا؟
وإذا ترى صخراً تفجَّرَ بالمياه ... فسله: من بالماء شقَّ صفاكا؟
وإذا رأيت النهر بالعذبِ الزلالِ ... جرى فسله :من الذي أجراكا؟
وإذا رايتَ البحرَ بالماء الأجاج ... طغى ، فسله :من الذي أطغاكا؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجياً ... فاسأله:مَن ياليلُ حاك دُجاكا؟
وإذا رأيت الصبحَ يسفر ضاحياً ... فاسأله:من يا صبحُ صاغ ضحاكا؟
هذى عجائبُ طالما أخذتْ بها ... عيناك وانفتحت بها أذناكا!!
واللهُ فى كل العجائب ماثل ... إن لم تكن لتراه فهو يراكا؟[1]

(1) هذا الأبيات من قصيدة بعنوان : (مع الله) للشاعر الشيخ إبراهيم بديوى من علماء الأزهر الشريف . نشرتها مجلة (الوعى الإسلامى) عدد جُمادى الثانية سنة ١٣٨٩هـ ص ٣٦

الفصل السابع

ولله الأسماء الحسنى

وصف الله أسماءه(1) بالحسنى فى أربع آيات من القرآن الكريم:

• ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ الأعراف

• ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الإسراء/١١٠

• ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ طه

• ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ الحشر

وقد ورد فى سبب نزول الآية الأولى أن أحد الصحابة كان يصلى ، ويقول فى صلاته : يارحمن ، يارحيم.فسمعه رجل من مشركى مكة فقال : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو اثنين! فأنزل الله تعالى:﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه﴾(2).

فبينت الآية أن لله تعالى عدة أسماء ، على المسلم أن يدعو الله بها ويسميه بها، ويثنى عليه بها ، ويناديه بها إذا أراد شيئاً منه جل فى علاه وهذه الأسماء كلها حسنى ؛ لأنها تدل على أحسن المعانى وعلى أكمل الصفات ، ونطلب

(1) الاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى المتجرد عن الزمان ، والمسمى هو المعنى الذى وضع الاسم بازائه ، والتسمية وضع الاسم للمعنى ، فهى أمور ثلاثة متغايرة انظر شرح المقاصد ١٢٤/٢ – وتفسير الرازى ١٠٨/١

(2) تفسير القرطبى ص ٢٧٦١ ط الشعب .

بكل اسم منها مايليق به فنقول : يارحمن ارحمنى ، ياهادى اهدنى ، ياتواب تب على ، يارزاق ارزقنى ، وإذا أردت اسماً متضمناً جميع صفات الكمال فقل: ياالله.

وقد ذكر الله تعالى بعض الأسماء فى أواخر سورة الحشر حيث قال :﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ الحشر

معنى الإلحاد فى أسمائه تعالى :

الإلحاد هو الانحراف والميل عن القصد.ويكون فى أسمائه على النحو التالى:

١- أن يوصف الله بما لايجوز أن يوصف به،كوصفه بالأب عند النصارى، وبالجسمية عند الكراكية . حيث قالوا : إن الله جسم كالأجسام.

٢- أن يُنفى عن الله بعض أسمائه التى ثبتت له . كما يفعله الشيعة الباطنية الغلاة .

٣- أن يُشتق من أسمائه صفة،وتُطلق على غيره كالأصنام ،كتسمية الصنم باللات من لفظ الجلالة (الله) ، والعُزى من اسمه (العزيز) و مناة من اسمه (المنان).

عدد أسمائه الحسنى :

روى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن لله تسعة وتسعين اسماً — مائة إلا واحداً — من أحصاها دخل الجنة »(1).

(1) رواه البخارى فى التوحيد – الفتح ٣٧٧/١٣ ومسلم فى الذكر والدعاء ٢٠٦٢/٤

وقد انقسم العلماء تجاه هذا الحديث إلى فريقين :

الفريق الأول : يرى أنه ليس لله تعالى أسماء إلا هذه التسعة والتسعين اسماً، والغرض من الحديث تحديد عدد أسماء الله ، وحصرها فى هذا العدد ومن هذا الفريق الإمام ابن حزم .

وهذه الأسماء حسب رواية الترمذى عن أبى هريرة هى :

(هو الله الذى لاإله إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر، الرءوف، ماللك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور)[1] .

الفريق الثانى : يرى أن لله تعالى أسماء أكثر من هذا العـــدد المــذكور فى الحديث ، وليس المراد من الحديث الإخبار بعـــدد الأسمــاء ، وحصـرها فى

(١) رواه الترمذى فى الدعوات ٥/٥٣٠ – المقيت : أى خالق الأقوات ، الحسيب : أى المحاسب عباده ، الواسع : الذى لاحدود لمعانى أسمائه وصفاته . المجيد : أى جميل الأفعال كثير الأفضال ، الحق : أى الثابت الذى لايزول ،الولى : المتولى امور خلقه ، الواجد : اى الغنى، الصمد : أى المقصود فى الحاجات ، المقسط : العادل فى حكمه ، النور : الظاهر وجوده المظهر لوجود غيره الرشيد : المرشد لعباده . الصبور : الذى لايعجل العقوبة .

هذاالعدد ، إنما المراد من الحديث الإخبار بأن من أحصى هذه الأسماء دخـل الجنة .

ولايجوز أن نسمّى الله إلا بما ورد فى القرآن الكريم ، أو السنة المطهرة[1] ، أو أجمع العلماء على جواز إطلاقه ، حتى ولو كان معناه صحيحاً وهذا معنى قول العلماء : « أسماء الله توقيفية ».

فلايقال : من أسمائه (الموجد) لأنه لم يرد فى الشرع ، وإن كان معناه صحيحاً. وإنما يقال: هو (الخالق) لوروده فى الشرع ، ولا يقال (الله سخى) بل يقال: (جوَّاد كريم) ولايقال : (الله شفيق) بل يقال : (رحيم) وهكذا .

هذا بالنسبة للأسماء ، وقد يتسامح فى الصفات مالا يتسامح فى الأسماء. فتقول من صفاته تعالى: أنه صانع العالم ، وموجده ، ومدبره، وهكذا. طالما أن الوصف يدل على الكمال .

والدليل على أن أسماء الله **أكثر من تسعة وتسعين** مايلى :

أولاً – أنه لم يثبت فى حديث صحيح سرد وعدُّ هذه الأسماء : فالحـــديث الذى ورد فيه ذكر الأسماء بروايتيه ضعيف . مع وجود اختلاف بين الروايتين بالزيادة والنقصان[2]. وقد رجح الإمام ابن حجر أنَّ سرد الأسماء ليس مرفوعاً إلى النبى ﷺ وإنما هو من جمع بعض الرواة[3].

(١) من العلماء من اشترط ورود (الاسم) فى السنة (المتواترة / لأن هذا الأمر يرجع إلى اعتقاد مايجوز أو يستحيل على الله تعالى . وبعضهم اكتفى بخبر (الأحاد) لأن اطلاق الاسم مسالة عملية يكفى فى ثبوتها حديث الآحاد .

(٢) سنن ابن ماجه ك ١٢٦٩/٢ (٣) فتح البارى ٢١٥/١١

ثانياً — وردت أسماء لله تعالى فى القرآن والسنة لم ترد فى هاتين الروايتين منها:

أ- اسم (الرب) وأغلب الدعاء بهذا الاسم .

ب- اسم (الوتر) ففى الحديث : « وهو وتر يحبُّ الوتر »[1].

جـ - اسم (المنَّان) عن أنس أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ، ورجل يصلى ، ثم دعا : « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد — لاإله إلا أنت المنَّان . بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام . ياحى ياقيوم » فقال النبى ﷺ « لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »[2].

د- اسم (السُّبُّوح) فقد كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : « سبوح قدوس . رب الملائكة والروح »[3].

هـ - اسم (مقلب القلوب) عن ابن عمر قال: كانت يمين النبى ﷺ :« لا ومقلب القلوب »[4].

و- اسم (الشافى) عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إن اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه . ثم قال : « أذهب الباس . وب الناس ، واشف أنت الشافى »[5].

ثالثاً : بل إنَّ الرسول ﷺ يُصَرِّح بأنَّ لله أسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده ، وله أسماء قد يكشف عنها لبعض أوليائه وأحبائه :

(١) رواه البخارى فى الدعوات — الفتح ٢١٤/١١
(٢) رواه أبو داود فى الصلاة ١٦٧/٢ (٣) رواه مسلم فى الصلاة ٣٥٣/١
(٤) رواه البخارى فى الأيمان والنذور — الفتح ٥٢٢/١١
(٥) رواه مسلم فى السلام ١٧٢١/٤

فعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ :« ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك . ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتى بيدك . ماضٍ فىَّ حكمك . عدل فىَّ قضاؤك . أسألك بكل اسم هو لك . سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك . أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى. إلا أذهب الله همَّه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجاً . قال : فقيل يارسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال : بلى . ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها »[1].

فهذا الحديث واضح فى أن أسماء الله تعالى أكثر من تسعة وتسعين .

معنى إحصاء الأسماء :

ذكر العلماء لقوله ﷺ « من أحصاها دخل الجنة » عدة معانى :

١- المراد من الأحصاء العدُّ والحفظ : أى من عدها وحفظها ، ودعا الله بها كلها ، ولم يقتصر على الدعاء ببعضها استحق الثواب الموعود به ، وذلك بشرط إيمانه . قال البخارى : (أحصيناه حفظناه)[2].

٢- المراد بالإحصاء الإطاقة : كما فى قوله تعالى : (علم أن لن تحصوه) أى لن تطيقوه ، فمن أحصاها اى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء، فإذا قال: (الحكيم) سلَّم جميع أوامره ، لأنها على مقتضى حكمته ، واذا قال : (القدوس) نزَّه الحق عن جميع النقائص والمعايب ، وإذا قال : (الرزاق) وثق بالرزق ، وهكذا ..

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٣٩١/١ والحاكم فى المسند ك ٥٠٩/١
(٢) الفتح ٣٧٧/١٣

٣- المراد بالإحصاء الإحاطة : من قول العرب : فلان ذو حصاة أى عقل ومعرفة ، فعلى المسلم أن يبذل غاية جهده فى الإحاطة بأسمائه تعالى من الكتاب والسنة .

٤- المراد بالإحصاء العمل بمقتضى الأسماء : فما يسوغ الاقتداء بمعناه اقتدى به ، كالرحيم والكريم والعفو ، وما يختص منها به تعالى ، يُقِّر العبد به ويخضع له ، كالجبار والمتكبر والأحد ، وما كان فيه معنى الوعد ، رغب العبد فيه.وتطلع إليه ، كالوهاب والولى واللطيف ، وما فيه معنى الوعيد ، خشى منه وخاف ، كالمنتقم والمذل والقهار .

أمور مهمة تتعلق بأسمائه الحسنى :

الأمر الأول :

ثبوت الأسماء الحسنى يدل على ثبوت صفاته العليا دون العكس ، فلا يلزم من ثبوت الصفة أن له اسماً منها .

فثبوت اسمه (العليم) يدل على ثبوت صفة العلم . قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ البقرة وقال : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ البقرة/ ٢٥٥ فالآية الأولى أثبتت الاسم ، والثانية الصفة.وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ يونس وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الكهف/ ٥٨ فدلت الآية الثانية على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة . وأجمع أهل اللغة على أنه لايقال عليم إلا لمن له علم . ولا رحيم إلا لمن له رحمة .

لكن إذا وردت الصفة . فلا يلزم أن يكون له اسم منها. قال تعالى :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ التوبة/ ٦ فالآية دلت على ثبوت صفة الكلام،لكن لم يرد ضمن أسمائه الحسنى : المتكلم.

الأمر الثانى :

سَمَّى الله نفسه بأسماء ، وسَمَّى بها بعض خلقه ، وسَمَّى صفاته بأسماء ، وسَمَّى ببعضها خلقه ، وليس المُسَمَّى كالمُسَمَّى :

١- فسمَّى نفسه: حياً ، وعليماً ، رءوفاً ، رحيماً ، سميعاً ، بصيراً ، عزيزاً ، ملكاً ، مؤمناً ، جباراً ، متكبراً .

وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء فقال : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الروم/ ١٩ والانعام/ ٩٥ ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ الذاريات ، ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ الصافات/ ١٠١ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة / ١٢٨ ، ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ الإنسان/ ٢ ، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴿٥١﴾﴾ يوسف ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ الكهف/ ٧٩ ، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ السجدة/ ١٨ .﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ غافر/ ٣٥ .

ومعلوم أن لايماثل الحيُّ الحيَّ ، ولا العليمُ العليمَ ، ولا العزيزُ العزيزَ ، وكذلك سائر الأسماء .

٢- وسَمَّى بعض صفاته علماً وقوة . فقال : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ النساء/١٦٦ وقال : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فصلت/١٥ . وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ الذاريات .

وأطلق هذه الصفات على خلقه . فقال عن يعقوب عليه السلام : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ يوسف/ ٦٨ وقال تعالى : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ هود/ ٥٢ وقال : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ التكوير ومعلوم ؟ أنه ليس العلمُ كالعلمِ ، ولا القوةُ كالقوةِ .

الأمر الثالث :

الاسم إذا كان جامداً ، لايتضمن معنى حسناً ، فليس من أسمائه الحسنى مثل (الدهر) . فهو اسم جامد للوقت والزمن . قال تعالى عن منكرى البعث :

﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ الجاثية/٢٤

يريدون مرور الليالى والأيام .

وأما قوله ﷺ : قال الله عز وجل : { **يؤذينى ابنُ آدم . يَسبُّ الدهرَ ، وأنا الدهرُ ، بيدى الأمر ، أقلّبُ الليل والنهار** }[1] فلا يدل على أن الدهر من أسماء الله تعالى . وذلك أن الذين يسبُّون الدهر ، إنما يريدون الزمان الذى هو محل الحوادث : لايريدون الله تعالى . فيكون معنى قوله :(وأنا الدهر) ما فسَّره

(١) رواه البخارى فى التوحيد – الفتح ٤٧٢/١٣ رقم ٧٤٩١ ومسلم ١٧٦٢/٤

بقوله: (بيدى الأمرُ ، أقلّبُ الليلَ والنهار) فهو سبحانه خالق الدهر ومافيه ، وقد بيَّن أنه يقلب الليل والنهار ، وهما الدهر ، ولا يمكن أن يكون المقلِّب – بكسر اللام – هو المقلَّب – بفتحها – وبهذا تبين أنه يمتنع أن يكون الدهر فى هذا الحديث مراداً به الله تعالى ؛ لأن فى الحديث مجازاً بالحذف .

الأمر الرابع :

من أسمائه تعالى ماهو مخصوص به ، لايجوز إطلاقه على غيره ، كالرزاق ، والمحى ، والمميت ، والقدوس ، والرحمن ، ومالك الملك ، وذى الجلال والإكرام . ومنها مايجوز إطلاقة على غيره مع اختلاف المعنى – كما سبق – مثل : الحى ، الرحيم ، الحليم .

ومن أسمائه ما يوصف به مطلقاً ، ويوصف به غيره مقيداً ، كالرب ، والقابض ، والباسط ، والخافض ، والرافع .

ومن أسمائه مايوصف الله به مدحاً ، ويوصف به غيره ذماً ، كالجبار ، والمتكبر.

ومن أسمائه ما لايطلق عليه إلا مقترناً بمقابله ؛ لأنه إن أطلق وحده أوهم نقصاً ، فلا نقول : (الضار) وحده . بل نقول : الضار النافع . ولانقول : (المانع) وحده ، بل المعطى المانع ، ولا نقول : (المذل) وحده بل : المعز المذل، ولانقول : (الخافض) وحده ، بل : الخافض الرافع .

وأسماؤه المضافة لاتطلق عليه بدون الإضافة . مثل : ﴿ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ يوسف/٦٤ ﴿ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ الأعراف/١٥٥ ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ المؤمنون/١٤ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ الفاتحة/ ٤ ، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

البقرة/ ١١٧ ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾
غافر/ ٣ ﴿ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾ آل عمران/ ٩ ، « مقلب القلوب »[١]

الأمر الخامس :

اختلف العلماء فى موضوع (اسم الله الأعظم) الذى إذا دُعِىَ به أجاب وإذا سئل به أعطى . وإليك بعض ماقالوه :

١- أنكر بعضهم تخصيص أحد أسمائه تعالى بأنه الاسم الأعظم . وقالوا : إن كل اسم من أسمائه ، يذكره العبد مستغرقاً فيه . فذلك الاسم هو الاسم الاعظم ، وحملوا ماورد من ذكر الاسم الأعظم فى السنة على ان المراد به العظيم. وقالوا : لايجوز تفضيل بعض أسمائه على بعض ، وممن ذهب هذا المذهب : الطبرى ، والأشعرى ، وابن حبان ، والباقلانى .

٢- وذهب بعض العلماء إلى وجود الاسم الأعظم ، وانقسموا إلى فريقين :

أ- فريق يرى أنه غير محدد ، ولا معلوم للخلق . مع الأعتراف بوجـــوده ، فقد استأثر الله بعلمه .

ب- وفريق يرى أنه معلوم للخلق . وهؤلاء اختلفوا فى تحديده على نحو أربعين قولاً ، لاختلافهم فى ترجيح بعض الأحاديث النبوية على بعض .

فمن قائل إنه : (الله) أو (الحى القيوم) أو (ذو الجلال والإكرام) أو (الحنان المنان).

والذى يظهر لى أن الله قد أخفاه ضمن الأسماء الحسنى ، كى يجتهد العبد بالذكر بها كلها . وقد يكون مركباً من أكثر من اسم من أسمائه . فالمهم

(١) حديث « يامقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك » رواه لترمذى فى الدعوات ٥/٥٣٨

حضور القلب عند الذكر ، واستكمال شروط الدعاء ، وذلك كما أخفى ليلة القدر . ليجتهد العبد فى إحياء ليالى رمضان ، وكما أخفى الصلاة الوسطى ، وساعة الإجابة يوم الجمعة ، والله اعلم .

وفيما يلى بعض الأحاديث النبوية التى وردت فى اسـم الله الأعظـم :

١- عن بريدة رضى الله عنه قال : سمع النبى ﷺ رجلاً يدعو ، وهو يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

قال : فقال : (والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دُعِىَ به أجاب ، وإذا سئل به أعطى)[١].

قال الحاحظ ابن حجر : هذا الحديث أرجح ماورد فى هذا الباب من حيث السَّنَد .

٢- عن أنس بن مالك رضى الله عنه : قال : دخل النبى ﷺ المسجد ، ورجل قد صلى ، وهو يدعو ، ويقول فى دعائه : اللهم لاإله إلا الله ، أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام .

فقال النبى ﷺ :« أتدرون بما دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى[٢].

٣- عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها ، أن النبى ﷺ قال : اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين :

• ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ البقرة

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه
(٢) رواه كذلك أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه

• ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [1] آل عمران

٤ - عن سعد بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هل أدلكم على اسم الله الأعظم . الذى إذا دُعِىَ به أجاب ، وإذاسئل بـه أعطى ؟ الدعوة التى دعا بها يونس : حيث نادى فى الظلمـات الـثلاث :

• ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأنبياء/ ٨٧

فقال رجل : يارسول الله ، هل كانت ليونس خاصة ، أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ ألا تسمع قـول الله عزوجـل : ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [2] الأنبياء

دراسة بعض أسمائه الحسنى :

قال تعالى : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ الحشر

• سنتحدث فى فصل (صفات الله تعالى) عن صفة العلم ، وفيما يلى نتناول معانى بقية الأسماء فى النص القرآنى المذكور .

معنى اسمه تعالى (الله) :

الله : هو الموجود المتصف بكل كمـال ، المسـتحق لجميـع المحامـد .

(١) رواه أبو داود والترمذى . وقال عنه : حديث حسن صحيح .
(٢) رواه الحاكم فى المستدرك .

واتفق العلماء على أن ماسوى لفظ (الله) من أسمائه تعالى مشتـق مـن صفاته العليا. فاسمه العليم مشتق من العلم،و (القدير) من القدرة ، وهكذا.

أما لفظ (الله) فقد اختلفوا فيه على رأيين :

الرأى الأول : أنه غير مشتق من شئ أصلاً ، بل هو اسم انفرد الحق به، كأسماء الأعلام ؛ وذلك لأن سائر الأسماء تضاف إليه ، فوجب أن يكون هذا اسماً للذات .

قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الأعـراف/ ١٨٠ فأضـافها جميعها لهذا الاسم .

كما أن قوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مريم/ ٦٥ يدل على أنه لم يُسم باسم (الله) ، ولو كان مشتقاً ، لكان صفة .

الرأى الثانى : أنه مشتق . واختلفوا فى أصل اشتقاقه . على أقوال منها :

القول الأول : أنه مشتق من الفعل (أَلَهَ) يأله . بمعنى: عبد . فمعنى الله: المعبود .

ويستعمل هذا الفعل (أَلَهَ) بمعنى : أجار ، وأَمَّنَ . فمعنى الله : أى الذى يجير من يلجأ إليه ، ويُؤمِّن من يلوذ به .

أو من: أَلِهَ : يأْلَهُ . بمعنى تحيَّر . لأن العقول متحيرة فى كنه جلاله وكماله.

القول الثانى : أنه مشتق من الفعل : لاه يلوه . بمعنى احتجب . فهو محتجب : تعجز العقول عن إدراك حقيقته .

أو من : لاه يلوه . بمعنى علا وارتفع . فهو العلى ، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ الأنعام/ ١٨

معنى (الرحمن الرحيم):

الرحمن : المنعم بجلائل النعم . والرحيم : المنعم بدقائقها .

والرحمة بالنسبة للإنسان : رقة فى القلب . تقتضى التفضل والإحسان .

والرحمة من صفات ذاته تعالى . وهى إرادة إيصال الخير للمخلوق ، ودفع الشر عنه ، وعلى هذا فقد كان الله فى الأزل رحماناً رحيماً ، لأن إرادته أزلية، فقد أراد فى الأزل أن ينعم على عبيده المؤمنين فيما لايزال .

وقال بعض العلماء : الرحمة من صفات الفعل ، وهى إيصال الخير ، ودفع الشر ، فالرحيم هو الذى يفعل الرحمة ، ويوصل النعمة .

وليس من شروط كونه رحيماً ألا يفعل إلا الرحمة . فهو تعالى : رحيم كريم ، ودود ، فى حق بعض عباده .

وقهار ، جبار ، منتقم ، فى حق آخرين .

كما أنه : قابض باسط ، ضار نافع ، معز مذل ، محى مميت ، حسب ما تقتضيه حكمته .

ولا نهاية لرحمته ، كما أنه لانهاية لقهره .

واسم (الرحمن) خاص بالحق، لايجوز إطلاقه على غيره. بخلاف(الرحيم) فقد أطلقه على حبيبه ﷺ فقال:﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ التوبة

وقال له : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ الأنبياء

وهو أبلغ من الرحيم ، لأنه رحمن الدنيا ، ورحيم الآخرة ، ورحمته فى الدنيا شاملة للمؤمن والكافر ، والصالح والطالح ، بإيصال الرزق ، والصحة وغير ذلك. ورحمته فى الآخرة خاصة بالمؤمنين .

وحروف (الرحمن) أكثر ، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

كما أن وزن (فعلان) للمبالغة دائماً . يقال : رجل عريان إذا لم يكن له ثوب أصلاً ، فإن كان له ثوب ممزّق يقال : إنه عار . ولا يقال : عريان .

وأما وزن (فعيل) فيكون للمبالغة وغيرها . كالسميع بمعنى السامع ، والقتيل بمعنى المقتول . وليس فيهما مبالغة .

ومن الآيات القرآنية التى ذُكرت فيها صفة الرحمة :

- ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ يونس
- ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ الأنعام/١٣٣
- ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ الكهف/٥٨
- ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ الأنعام/١٤٧
- ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ الروم/٥٠
- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ الشورى/٢٨
- ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ الأعراف

ومن الأحاديث النبوية التى تبين لنا رحمة ربنا :

- « لما خلق الله الخلق ، كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » .

• « إن لله مائة رحمة ، فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة ».

• « لو يعلم المؤمن ماعند الله من العقوبة ، ماطمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ماعند الله من الرحمة ، ماقنط من جنته أحد ».

• ولما عجب الصحابة من رحمة الأم برضيعها ، قال لهم : « الله أرحم بعباده من هذه بولدها »[(1)].

معنى اسمه (الملك):

من أسمائه (الملك) قال تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ المؤمنون/١١٦.

ومن أسمائه (المالك) قال تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ الفاتحة.

و (المليك) قال تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥ ﴾ القمر.

و (مالك الملك) قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ آل عمران/٢٦ .

والملك : هوالذى يملك الأشياء ، ويقدر على التصرف فيها حسب علمه وإرادته . وهذا لايكون على الحقيقة إلالله تعالى . فهو إذاشاء مَلَّكَ ، وإذا شاء أهلك . واختلف العلماء فى أيهما أبلغ : ملك أو مالك ؟

قال الشوكانى : « والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لايوجد فى الآخر . فالمالك يقدر على ما لايقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع ، والهبة ، والعتق ، ونحوها .

والملك يقدر على ما لايقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك ، ورعاية مصالح الرعية .

(١) هذه الأحاديث المباركة رواها الإمام مسلم ك التوبة ب سعة رحمة الله ٤/٢١٠٧

فالمالك أقوى من الملك فى بعض الأمور . والملك أقوى من المالك فى بعض الأمور .

والفرق بين الوصفين بالنسبة للرب سبحانه : أن الملك صفة لذاته ، والمالك صفة لفعله » .

ولا يجوز أن نسمى غير الله تعالى باسم (الملك) .

وأما الوصف بمالك وملك . فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومها .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ البقرة/٢٤٧

وقد ذكر الله خمسة أنواع من مظاهر كونه الملك فى قوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧ ﴾ آل عمران

فأولها : إيتاء الملك ونزعه . فليس هذا إلا الله .

وثانيها : ملك الإعزاز والإذلال ، فهو وحده المعز المزل .

وثالثها : ملك تقليب الليل والنهار ، ومايترتب على ذلك من المنافع .

ورابعها : ملك الإحياء والإماتة. ويدخل فيه الإنسان، والحيوان ، والنبات.

وخامسها : ملك الرزق . كما قال : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ۝٦ ﴾ هود/٦

معنى اسمه (القدوس) :

القدوس مشتق من الفعل: قَدُسَ يقدُس. بمعنى طهر، وقدَّسه: عظَّمة وكبَّره.

قال تعالى : ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة/٣٠

وقيل للجنة : (حظيرة القدس) لطهارتها من آفات الدنيا .

وقيل لجبريل : (روح القدس) لطهارته من العيوب فى تبليغ الوحى إلى الرسل عليهم السلام ، ولأنه يترل بما يُطهِّرُ النفوس .

وسُمِّى (بيت المقدس) كذلك ؛ لأنه مكان يُتطهر فيه من الذنوب .

فمعنى اسمه (القدوس) : المتره عن النقائص والعيوب .

أو هو : من تقدست عن الحاجات ذاته ، وتترهت عن الآفات صفاته .

فهو من الصفات التتريهية .

معنى اسمه (السلام):

السَّلْم والسلامة : الخلوص من الآفات الظاهرة والباطنة .

والسلامة الحقيقية ليست إلا فى الجنة . إذ فيها بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل ، وصحة بلا سقَم . قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الأنعام/١٢٧ أى دار السلامة .

وقال تعالى عن يحيى عليه السلام : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ مريم

فأكرمه فى هذه المواضع الثلاثة ، وخصه بالسلامةمن آفاتها ، وسلَّمه من شرها.

فمعنى اسمه (السلام) : ذو السلامة ، أى البراءة من العيوب ، ويكون من صفات التتريه .

أو معناه : المُسلِّم . فهو يُسلم على أوليائه فى الجنة . كما قال : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ الأحزاب/٤٤ وقال : ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ يس ؛ فيكون من صفات الأفعال أيضاً .

معنى اسمه (المؤمن):

لفظ (المؤمن) مشتق فى اللغة من (الإيمان) وهو مصدر لفعلين :

أحدهما — من التصديق . قال تعالى : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ يوسف/١٧ أى بمصدق لنا .

والآخر — من الأمان الذى هو ضد الإخافة . قال تعالى : ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ قريش .

فعلى الاول يكون معنى اسمه (المؤمن) : المصدِّق . فهو يصدق أنبياءه بالمعجزات الدالة على صدقهم .

وعلى الثانى يكون معنى (المؤمن) : واهب الأمن ، وباعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، فلا خوف لمن يلجأ إليه ، ويلوذ بحماه ، ولا أمن إلا فى كنفه جل فى علاه .

معنى اسمه (المهيمن):

المعنى الأول : المهيمن معناه : الشاهد . كما فى قوله : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ المائدة/٤٨

أى شاهداً عليه فهو تعالى شاهد على خلقه بما يصدر منهم من قول أو فعل، وعالم بهم ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

المعنى الثانى : المهيمن : الرقيب الحافظ وهو اسم لمن كان موصوفاً بمجموع صفات ثلاث :

أحدها : العلم بأحوال الشئ .

والثانى : القدرة التامة على تحصيل مصالح ذلك الشئ .

والثالث : المواظبة على تحصيل تلك المصالح .

فالجامع لهذه الصفات اسمه (المهيمن) ولن تجتمع على الكمال إلا لله تعالى.

معنى اسمه (العزيز):

كما ذكر الله بأن من أسمائه (العزيز) أثبت لنفسه صفة (العزة) فقال : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ المنافقون/٨ وقال : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ الصافات

وفى اشتقاق اسمه (العزيز) عدة احتمالات :

الأول: أن يكون بمعنى أنه لامثل له ولا نظير . من عزَّ الشئ يعِزُّ — بكسر العين — يقال : عزَّ الطعام فى البلد . إذا تعذر وجوده . فإذا سُمِّىَ الشئ الذى يعسر وجود مثله بالعزيز — فبأن يسمى الذى يمتنع عقلاً أن يكون له نظير بالعزيز أولى .

قال الإمام الغزالى : « العزيز هو الذى يقلُّ وجود مثله : وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه . فما لم تجتمع هذه المعانى الثلاثة فيه ، لم يطلق

عليه اسم العزيز ، فكم من شئ يقل وجوده ، ولكن لايحتاج إليه ، فلا يسمى عزيزاً، وقد يكون بحيث لا مثل له ، والانتفاع به عظيم جداً ، ولكن يسهل الوصول إليه ، فلا يسمى عزيزاً ، كالشمس ، فإنه لامثل لها ، والانتفاع بها عظيم جداً ، ولكنها لا توصف بالعزة ، فإنه لايصعب الوصول إليها ، فأما إذا اجتمعت المعانى الثلاثة فى شئ فهو عزيز »[1].

وهذه المعانى الثلاثة لا تتحقق بكمالها إلا فى الله ، فهو العزيز المطلق .

الثانى : أن يكون بمعنى : (الغالب) الذى لايغلب . من عزَّ يَعُزُّ — بضم العين — أى غلب يغلب . ومنه قوله تعالى : ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ ص/٢٣. أى غلبنى . فإذا قيل لمن غلب — مع جواز أن يصير مغلوباً — إنه عزيز، فالغالب الذى يمتنع أن يصير مغلوباً ، والقاهر الذى يستحيل أن يصير مقهوراً. أولى أن يسمى بالعزيز .

الثالث : أن يكون بمعنى : (الشديد القوى) . يقال : عزَّ يَعَزُّ — بفتح العين — إذا اشتدَّ وقوى . ومنه قوله تعالى : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ يس

الرابع : ان يكون بمعنى المُعِز ، فهو يعز من يشاء من عباده .

وعلى الاحتمال الأول يكون من صفات التنزيه . وعلى الثانى والثالث يكون من صفات الذات ، وعلى الرابع يكون من صفات الفعل .

معنى اسمه (الجبار):

١- يقول العرب : ناقة جبارة ، إذا عظمت وسمنت . فمعنى اسمه (الجبار) العظيم . فيكون من صفات الذات .

(١) المقصد الأسنى ص ٦٩ وشرح الأسماء الحسنى للرازى ص ٢٠٤ والمثبت صياغة الرازى لفكرة الغزالى .

٢- ويقولون : نخلة جبارة ، إذا طالت وعلت . وقصرت الأيدى عن أن تنال أعلاها ، فيكون معنى (الجبار) العالى الذى لاتناله الأفكار ، ولا تحيط به الأبصار ، وعلى هذا يكون من صفات التتريه .

٣- ويقولون : جبر السلطان فلاناً على الأمر . أى أكرهه عليه ، والحق هو الذى أجبر الخلق على ما أراد ، لايجرى فى ملكه إلا مايشاء ، وعلى هذا يكون من صفات الأفعال .

٤- ويقولون : جبرت الكسر إذا أصلحته . ويقولون : ياجابر كل كسير ، فمعنى (الجبار) المصلح للأمور . فهو من صفات الأفعال أيضاً .

معنى اسمه (المتكبر):

١- المتكبر هو الذى يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته ، فلا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، وينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد . فإن كان صادقاً، كان التكبر صفة مدح ، ولا يتصور ذلك على الإطلاق إلا فى حق الله تعالى ، وإن كان كاذباً، كان التكبر مذموماً . وهذا فى حق المخلوق .

وفى الحديث القدسى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى . فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار »[1].

فالتكبر فى حقه صفة مدح وكمال ، وفى حق غيره صفة ذم واختلال .

(١) رواه أبو داود فى سننه ب ماجاء فى الكبر ٣٥٠/٤ رقم ٤٠٩٠

٢- وقالوا : المتكبر مأخوذ من الكبرياء ، والكبرياء فى اللغة الملْك ومنه قوله تعالى : ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يونس/٧٨ يعنى الملك . فعلى هذا المتكبر : هو الملك الذى لايزول سلطانه .

٣- وقالوا : المتكبر بمعنى الكبير العظيم . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ يوسف/٣١ أى أعظمنه . والحق الكبير الذى ليس لكبريائه نهاية ، والعظيم الذى ليس لعظمته غاية .

معنى اسمه (الخالق):

للخلق فى اللغة معنيان :

المعنى الأول: التقدير. وهو تكوين الشئ على مقدارمعين.ولابد فيه من أمور:

١- قدرة مؤثرة فى وجوده .

٢- وإرادة مخصصه لمقداره دون زيادة أو نقص .

٣- وعلم بذلك القدر الخاص ، لأن إرادة الشئ تستلزم العلم به .

• **ومن الآيات القرآنية التى جاء فيها الخلق بمعنى التقدير :**

١- ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ المؤمنون أى المقدرين ، لأنه لاموجد إلا الله .

٢- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ آل عمران فالمراد من قوله : (كن فيكون) : الإيجاد والإبداع. وقوله (خلقه من تراب) مقدم عليه ، والشئ المتقدم على الإيجاد ليس إلا التقدير . فمعنى (خلقه من تراب) أى قدَّره .

٣- قوله لعيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾ المائدة/١١٠

المعنى الثانى : الإيجاد من العدم .

ومن الآيات القرآنية التى جاء فيها الخلق بهذا المعنى :

١- ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الفرقان ولو كان الخلق هنا بمعنى التقدير ، لكان معنى الآية : وقدَّر كل شئ فقدره تقديراً . وهذا تكرار لا فائدة فيه . إنما معنى خلق : أوجد وأبدع .

٢- ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فاطر/٣ ولا يمكن تفسير الخالق هنا بمعنى القدر ، لأن المقدرين كثير ، فوجب أن يكون معنى الخالق هو : الموجد والمبدع .

٣- ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ لقمان/١١ أى هذا إيجاده وإبداعه ، وصنعه . فهل أوجد غيره شيئاً ؟

وعلى كلا المعنيين هو من صفات الأفعال .

معنى (البارئ المصور):

البرأ : القطع والفصل . يقال : برأت العود ، وبروته . إذا قطعته ونحته ، وبريت القلم إذا قطعته وأصلحته .

فهو سبحانه (خالق) بمعنى أنه موجد للذوات والأعيان ، و (بارئ) بمعنى أنه فصل بعض الأشخاص عن بعض ، و (مصور) بمعنى أنه هو الذى يصور كل واحد من الأشخاص بصورته الخاصة التى يتميز بها ، وبهذا يظهر الفرق بين الأسماء الثلاثة .

والمصور إما ان يكون مشتقاً من :

١- صار يصور صَوْراً كقال يقول قولاً : أو من : صار يصير صيراً . كباع يبيع بيعاً. بمعنى أمال . كما فى قوله تعالى:﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ البقرة/٢٦٠ أى أملهن . فمعنى أن الله مصور : أى خالق للأشياء على الشكل المائل إلى المصلحة والمنفعة التى من أجلها خلقت .

٢- أو صار يصير صيراً . بمعنى فصل الشئ وخططه وشكله ، وجعل له صورة مميزة فالحق يصور المخلوق بالصورة والشكل والهيئة التى يُعْرَف بها ، ويتميز بها عن غيره. كما قال: ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ آل عمران/٦ . وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ الانفطار

معنى اسمه (الحكيم):

١- **الحكيم** : العالم المتقن للأمور . وإحكام الله للأشياء : إتقان الله تدبيرها، وحسن تقديرها ، ولو كانت بقة أو نملة ، ففيها من الإتقان والدلالة على قدرة الخالق وعلمه مالا يقل عما فى خلق السموات والأرض ، والجبال والبحار .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ السجدة/٧ ليس المراد الحسن الرائق فى المنظر ، فإن ذلك مفقود فى القرد والخنزير . إنما المراد حسن التدبير فى وضع كل شئ موضعه بحسب المصلحة .

٢- **الحكيم** : المانع من الفساد . ومنه سميت حكمة اللجام ، لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد . والحكمة من هذا المعنى . لأنها تمنع صاحبها من الجهل والسفه .

الفصل الثامن

صفات الله تعالى

مقدمة :

لكل موجود صفات يتميز بها عن غيره ، وصفات الله تعالى كلها صفات كمال، لامجال للنقص فيها بحال من الأحوال ؛ لأن له تعالى المثل الأعلى، كما قال سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ النحل/٦٠

فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أى ليس كهو شئ . ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ أى بالذى آمنتم به فالكاف للتأكيد .

وقد نزّه الله تعالى نفسه عما يصفه به المشركون من صفات النقص فقال :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ الصافات

وعن ابن عباس أن اليهود أتوا النبى ﷺ قالوا : صف لنا ربك الذى تعبد. فأنزل الله عزوجل﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ الخ فقال هذه صفة ربى عزوجل.

وعن عائشة أن النبى ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ قال: سلوه لأى شئ يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن . وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبى ﷺ : أخبروه أن الله يحبه[1].

(١) رواه البخارى فى التوحيد ٣٦٠/١٣

وقد سبق أن أشرنا إلى أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء ؛ لأن كل اسم من أسمائه الحسنى متضمن لصفة من صفاته العليا، دون العكس .

ولأن من صفاته تعالى مايتعلق بافعاله ، وأفعاله لانهاية لها .

ونحن نصف الله عز وجل بما وصف به نفسه فى القرآن الكريم. وفى السنة المطهرة ، ولاسبيل للعقل البشرى لأن يدرك كُنْه وحقيقة صفاته تعالى ، وإن اشترك بعضها مع بعض صفات الخلق، لكنه اشتراك فى الاسم فقط كما سبق أن أشرنا. فعلى العقل البشرى أن يقف عند ما أتى به الوحى من صفات لرب العزة جل فى علاه، ولا يتجاوز ذلك . ولا يجنح إلى الإفراط أو التفريط.

قال الإمام الشافعى:« لايبلغ الواصفون كنه عظمته. الذى هو كما وصف نفسه . وفوق مايصفه خلقه »[1].

تقسيم صفاته تعالى :

لايمكننا حصر صفاته عز وجل . لكننا إذا نظرنا إلى معناها ، نجدها تنقسم إجمالاً إلى قسمين :

١- صفات سلبية أو تنزيهية : وهى تدل على سلب النقص عنه تعالى . فإذا قلنا: إنَّ من صفاته (البقاء) فهذا يعنى: سلب الفناء والعدم عنه تعالى.

٢- صفات وجودية أو ثبوتية : وهى تدل على كمال موجود فى الحق ، وهى أكثر وروداً فى القرآن والسنة من الصفات السلبية .

(١) الرسالة ص٨

وهى تنقسم إلى قسمين : ذاتية وفعلية :

(أ) فالصفات الذاتية : هى المعانى التى تدل على الكمال والعظمة ، فيتصف بها ويستحيل أن يتصف بضدها ؛ لأن ضدها نقص . وهو لم يزل ولا يزال متصفاً بها ، وذلك كالعلم والقدرة . ومنها الصفات الخبرية التى جاءت فى القرآن والسنة . ولايدل عليها العقل . مثل : الوجه واليد .

(ب) والصفات الفعلية : هى الصفات التى تتعلق بمشيئته وقدرته . إن شاء فعلها، وإن لم يشأ لم يفعلها ، فيمكن أن يتصف بها أو بضدها. وذلك كالإحياء ، والإماتة ، والخلق ، والرزق .

وكان علماء التوحيد القدامى لايقسِّمون الصفات ، ولايميزون بعضها عن بعض فى كتبهم . إنما يسردونها سرداً مُكْتفين بذكر الآيات القرآنية التى وردت فيها الصفة ، والأحاديث النبوية بأسانيدها التى تدل على هذه الصفة. كما نرى ذلك عند الإمام (ابن خزيمة) ٢٢٣-٣١١هـ فى : (كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب).

لكن من جاء بعدهم من العلماء اهتم بتقسيم صفات الله عزوجل وتبويبها تيسيراً على الدارس لها ، والراغب فى التعرف عليها .

الصفات التنزيهية أو السلبية :

هى الصفات التى تنفى النقائص عن الله تعالى ، فيكون معناها : نفى ضدها عنه تعالى. فإذا قلنا : من صفاته السلبية (البقاء) فمعناه : سلب الفناء عنه .

وقد نفى الله تعالى النقائص عن ذاته : ليثبت له كمال ضدها ، وكذلك فى السنة المطهرة .

مثال ذلك من القرآن الكريم :

- ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الكهف نفى الظلم يتضمن كمال عدله .
- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ الفرقان/٥٨ نفى الموت يتضمن كمال حياته.
- ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ البقرة/٢٥٥ نفى ذلك يتضمن كمال حياته وقيوميته.
- ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ البقرة/٢٥٥ لكمال قدرته .
- ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ ق أيضاً لكمال قدرته .
- ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الأنعام/١٠٣ لكمال جلاله، وعظمته، وكبريائه.
- ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سبأ/٣

ومثاله من السنة المطهرة :

- « إن الله لاينام ، ولا ينبغى له أن ينام »(١)
- « إن الله لا مستكره له »(٢)
- « إن الله لايتعاظم عليه شئ »(٣)
- « إن الله لايحب الفحش ولا التفحش »(٤)
- « إن الله ليس بأعور »(٥)
- « إن الله لايظلم المؤمن حسنة »(٦)

---

(١) رواه أحمد فى المسند ٤٥٨/٢ (٢) رواه مسلم فى الإيمان ١٦٢/١
(٣) رواه مسلم فى الذكر والدعاء ٢٦٣/٤ (٤) رواه مسلم فى السلام ١٧٠٧/٤
(٥) رواه البخارى فى التوحيد ــ المتن ١٤٨/٩ والفتح ٤٠١/١٣
(٦) رواه مسلم فى صفات المنافقين ٢١٦٢/٤

وقد قام علماء التوحيد بدراسة صفات الله التتريهية ، واختلفت طرقهم فى عرضها. فمنهم من يُجمِل، ومنهم مَن يُفصِّل،ومنهم من يلتزم بالألفاظ الواردة فى القرآن والسنة ، ومنهم من يستعمل المصطلحات العلمية فى التعبير عنها. بعد اتفاقهم على أنه يجب تتريه الحق عن كل مالا يليق بذاته جل فى علاه.

وإليك نموذجاً لمن أجمل صفات التتريه فى أحد كتبه وهو الإمام أبو حامد الغزالى قال عن الله تعالى:

« انه فى ذاته واحد ، لاشريك له ، فرد لامثيل له ، صمد لاضد له ، منفرد لاندَّ له ، وإنه واحد قديم لا أول له ، أزلى لا بداية له ، مستمر الوجـود ، لاآخر له، أبدى لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له ، لم يـزَل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال ، لايقضى عليه بالانقضـاء والانفصـال ، بتصرم الآباد وانقراض الآجال ، بل هو الأول والآخر ، والظاهر والبـاطن ، وهو بكل شئ عليم ».

وأنه ليس بجسم مُصوَّر ، ولا جوهر محدود مقدَّر ، وأنه لايماثل الأجسام ، لا فى التقدير ، ولا فى قبول الانقسام ، وأنه ليس بجوهر ، ولا تُحلُّه الجواهر ، ولا بعرض ، ولا تحله الأعراض ، بل لايماثل موجوداً ، ولا يماثله موجـود ، ليس كمثله شئ ، ولا هو مثل شئ ، وأنه لايحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات .

وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذى قاله ، وبـالمعنى الـذى أراده . استواء متزهاً عن المماسة والاستقرار ، والتمكن والحلول والانتقال ، لايحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فى قبضتـه ، وهو فوق العرش والسماء ، وفوق كل شئ إلى تخوم الثرى ، فوقية لاتزيـده

قرباً إلى العرش والسماء ، كما لاتزيده بعداً عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء ، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى . وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شئ شهيد ؛ إذ لايماثل قربه قرب الأجسام ، كما لاتماثل ذاته ذات الأجسام.

وأنه لايحل فى شئ ، ولا يحل فيه شئ . تعالى عن أن يحويه مكان ، كمـا تقدس عن أن يحدَّه زمان ، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان، وهـو الآن على ماعليه كان »[1].

وأغلب علماء التوحيد يذكرون فى هذا الباب خمس صـفات دلَّ عليهـا العقل الصريح ، والنقل الصحيح ، وإليها نرجع سائر التتريهات ، فهى لهـا كالأمهات. وهى: القدم أو الأولية ، والبقاء أو الآخرية ، والقيام بـالنفس ، والمخالفة للحوادث ، والوحدانية . وإليك التفصيل :

١- صفة الأولية :

ويسميها علماء التوحيد : (صفة القِدَم) ومعنـاه أن الله تعـالى لا أول لوجوده، فهو أزلى لابداية له ، ولم يسبقه عدم ، فقد كان الله ولا شئ غيره ، ثم خلق الخلق.

وقد سأل أحد الرهبان الإمام أبا حنيفة هذا السـؤال: مـاذا قبـل الله ؟ فأجاب أبو حنيفة: هل تُحْسِن العدد؟ قال: نعم. قال: ماذا قبل الواحد؟ قال: لاشئ قبله . قال : إذا كان الواحد الفانى لاشئ قبله ، فالله سبحانه لاشئ قبله.

(١) احياء علوم الدين ١٥٤/١

وإذا وصفنا الله بالقدم ، فمعناه يختلف عن وصف شئ من المخلوقات بالقدم . إذ معنى قِدَم المخلوق : طول المدة ، وتوالى الزمن على الشئ.

وقد جاء لفظ (القديم) فى القرآن الكريم فى ثلاث آيات :

١ - ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ يس

٢ - ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ يوسف

٣ - ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ الأحقاف

فالقديم فى هذه الآيات معناه الذى توالى عليه الزمن .

أما بالنسبة لله فهو الذى لابداية له .

وهذا المعنى قد جاءت به اللغة العربية ، ودوّنه أصحاب المعاجم اللغوية :

جاء فى ترتيب القاموس المحيط : « القِدم – كعِنَب – ضد الحدوث »[1].

وجاء فى لسان العرب: « القديم على الإطلاق: الله عزوجل .. والقِدَم نقيض الحدوث »[2].

وورد فى مختار الصحاح : « القِدم ضد الحدوث »[3].

وكان الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله - يطلق على الله لفظ (القديم) قال:

« ثبت أن القديم شئ لا كالأشياء ، وحىٌّ لا كالأحياء »[4]

فنطلق على الله لفظ (القديم) على أنه صفة وليس اسماً من الأسماء الحسنى: لأنه يتوسع فى الصفات مالا يتوسع فى الأسماء .

---

(١) ٥٠٦/٣ (٢) ٣٥٥٢/٥ (٣) ص٥٢٥

(٤) عقيدة الإمام أحمد لابن تميم الحنبلى بذيل طبقات الحنابلة ٢٦٥/٢

وقد جاء الشرع بلفظ (الأول) وهو أفضل ؛ لأنه يُشعر بأن مابعده آيل إليه ، وتابع له.قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد/٣

وعن أبى هريرة قال كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول : (اللهم ربَّ السموات ، وربَّ الأرض ، وربَّ العرش العظيم . ربَّنا وربَّ كل شئ، فالق الحبِّ والنَّوى ، ومُنْزِل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كلِّ دابة أنت آخذ بناصيتها . اللهم أنت الأول ، فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شئ ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شئ ، وأنت الباطن ، فليس دُونك شئ . اقضِ عنا الدين ، وأغننا من الفقر)[1].

أما لفظ (القديم) فلم أجده فى السنة المطهرة إلا فى رواية لابن ماجه فى كتاب الدعاء . فقد عدَّه ضمن أسماء الله الحسنى فى أثناء سرده لها . وهذه الرواية ضعيفة ، كما فى الزوائد[2].

وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : « دخلت على النبى ﷺ ، وعَقَلت ناقتى بالباب ، فأتاه ناس من بنى تميم فقال : اقبلوا البُشرَى يابنى تميم. قالوا : قد بشرتنا فأعطنا (مرتين) ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن . فقال: اقبلوا البشرى ياأهل اليمن ، إن لم يقبلها بنو تميم . قالوا : قد قبلنا يارسول الله.

قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر .

قال :كان الله ولم يكن شئ غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شئ ، وخلق السموات والأرض.

---

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء ٢٠٨٤/٤ (٢) سنن ابن ماجه ١٢٧٠/٢

فنادى مناد : ذهبت ناقتك يابن الحصين . فانطلقت فإذا هى يقطع دونها السراب . فوالله لوددت أنى كنت تركتها »(١)

وفى رواية :« كان الله ولم يكن شئ قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض »(٢)

بلفظ (قبله) بدل (غيره) الذى هو أصرح فى القدم ، أى لا الماء ولا العرش ولاغيرهما، وكأن راويها رواها بالمعنى أخذاً من حديث:« اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ ».

وبعطف خلق السموات والأرض بلفظ (ثم) بدل الواو . ويؤيد ذلك مارواه الإمام مسلم من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً:« إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»(٣). فترتيب المخلوقات هكذا : الماء ، ثم العرش ، ثم القلم ، ثم السموات والأرض.

والدليل العقلى على صفة القدم:

أنه تعالى لو لم يكن قديماً ، لكان حادثاً مثل هذه المخلوقات ، فلا يتأتى له أن يحدثها، ولاحتاج إلى علة تمنحه الوجود . كيف وهو الخالق لكل موجود!

٢ - صفة الآخرية :

ويسميها علماء التوحيد : صفة (البقاء) ومعناها : أن الله تعالى لاآخر لوجوده ، فلا يلحقه عدم أو فناء.

---

(١) رواه البخارى فى بدء الخلق-الفتح ٣٣٠/٦ والبشرى: أن من أسلم نجا من الخلود فى النار، وقولهم : (بشرتنا فأعطنا) أى : أعطنا من أمور الدنيا . والذكر: اللوح المحفوظ ، أو سجل الكائنات التى قدرها الحق.

(٢) رواها البخارى فى التوحيد – الفتح ٤١٤/١٣

أما البقاء بالنسبة للمخلوق فمعناه : استمرار الوجود زمنين أو أكثر.

والدليل النقلى على صفة البقاء :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ الحديد/٣

وقوله سبحانه:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ القصص/٨٨

قال مجاهد : معناه إلا هو(١) تعالى.

وقال الشوكانى فى تفسيره : أى إلا ذاته(٢) تعالى .

وقوله تعالى:﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الرحمن

قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه (٣) تعالى .

وقال الشوكانى : الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده(٤).

فسواء فسرنا (الوجه) بالذات ، أو بصفة من صفات الذات . فمعلوم أن الصفة لاتبقى بدون الموصوف . فالله باق بذاته وصفاته.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول:« لاإله إلا الله وحده ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شئ بعده»(٥).

والدليل العقلى على اتصافه بالبقاء:

أنه لو لم يجب لله البقاء ، لجاز عليه الفناء .كيف ذلك وقد ثبت قدمه ، وكل ماثبت قدمه استحال عدمه .

---

(١) رواه مسلم فى القدر ٢٠٤٤/٤
(٢) تفسير القرطبى ص ٥٠٣٨ ط. الشعب
(٣) فتح القدير ١٨٩/٤
(٤) تفسير القرطبى ص ٦٣٣٥
(٥) فتح القدير ١٣٦/٥

٣- صفة القيومية :

ويسميها علماء التوحيد (القيام بالنفس) ومعناها: أنه تعالى مستغنٍ عن غيره استغناءً تاماً ، فهو لايحتاج إلى محل ؛ لأن الحال فى محل محتاج إليه ، و لايحتاج إلى مكان ، ولا زمان ، لأنه خالق ذلك كله ، فلا يحدُّه مكان ، ولا يحصره زمان ؛ لأنه كان قبل المكان وقبل الزمان ، فهو على ماعليه كان.

وهو غير محتاج إلى مخصص خارجى يخصصه ببعض الصفات دون بعض. فهو مستغن عن كل ماسواه ، وكل ماسواه محتاج إليه.

والله تعالى يستحيل أن يكون فى (جهة) من الجهات ، لأن الجهة هى المكان المضاف إلى مكان أخر ، وهى خاصة بالأشياء المادية ، وما ليس جسماً يستحيل أن يكون فى جهة.

قال الإمام أبوحنيفة :كان الله تعالى ولا مكان .كان قبل أن يخلق الخلق.كان و لم يكن أين- أى مكان — ولا خلق ، ولاشئ. وهو خالق كل شئ »(١).

واستدلال المشبهة على إثبات الجهة لله تعالى برفع الأيدى إلى السماء فى الدعاء، لايدل على ثبوتها ، لأن الله شرع لنا رفع الأيدى إلى السماء فى الدعاء، كماشرع لنا السجود على الأرض فى الصلاة ، كما شرع لنا الطواف حول بيته الحرام . وكل ذلك لايثبت جهة لله ، ولماكان الرزق فى السماء ، فإليه ترفع الأيدى بالدعاء.

واستدلالهم بحديث الجارية التى قال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ فقالت : فى السماء . لايدل على إثبات الجهة ؛ لأنه خاطبها على قدر عقلها ، فهى

(١) إشارات المرام للبياضى ص ١٩٧

أمية راعية غنم ، وهذا أقصى ما تستطيع أن تعبر به .كما تقول لطفل سألك: أين الله ؟ فتقول له : فى السماء.

وقيل : إنَّ الحديث مروى بالمعنى ، لأنها كانت خرساء ، ولاسبيل لها لبيان علو المنزلة والرتبة إلا بالإشارة إلى السماء.

وإن ظنَّ المشبهة أن قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنعام

يثبت الجهة لله : فقد قال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ الزخرف/٣٢ فهل هذه فوقية مكانية ؟

وهل كان فرعون فوق أهل مصر عندما قال: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ الأعراف

وتكرر وصف الله بالحى القيوم فى القرآن ثلاث مرات فى البقرة/٢٥٥ وآل عمران/٢ وطه/١١١ والقيوم : القائم بنفسه . المانح لغيره مابه قوامه . كما قال تعالى :﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الرعد/٣٣

وروى البخارى : كان النبى ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد ، أنت قيِّم السموات والأرض ، ومن فيهن » وفى رواية « قيَّام السموات».

قال قتادة : القيام القائم بنفسه بتدبير خلقه ، المقيِّم لغيره(١).

ومن أسمائه الحسنى (الغنى) قال:﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ ﴾ الأنعام/١٣٣

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ فاطر

(١) رواه البخارى فى التهجد — الفتح ٦/٣

وقال : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ الأنعام/١٤

وقال: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ المؤمنون

وقال فى الحديث القدسى : « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضَرِّى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . ياعبادى . لو أنَّ أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، مازاد ذلك فى ملكى شيئاً. ياعبادى. لو أنَّ أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[(١)].

والدليل العقلى على اتصافه تعالى بهذه الصفة : أنه تعالى لو كان محتاجاً إلى محل ، أو مخصص ، لكان حادثاً ، وهو محال.

٤ - مخالفته للحوادث:

ومعنى هذه الصفة : عدم مماثلته تعالى للمخلوقات فى الذات ، والصفات ، والأفعال . فذاته ليست كذواتنا ، وصفاته ليست كصفاتنا ، وأفعاله ليست كأفعالنا . ومهما تصورت ببالك ، فالله بخلاف ذلك . ولايعلم حقيقة الله إلا الله.

والدليل النقلى : على هذه الصفة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى أى ليس كهو شئ . فالكاف لتأكيد النفى مثل قوله : ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أى بالذى آمنتم به.

(١) رواه مسلم فى البر والصلة ١٩٩٤/٤

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

والدليل العقلى : أنه لو كان مماثلاً للمخلوقات ، لكان حادثاً مثلها ، واحتاج إلى محدث ، وقد ثبت له القدم ، فبطل كونه حادثاً ، فلايكون مماثلاً للمخلوقات.

الصفات الموهمة للتشبيه :

وردت آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية بها ألفاظ ربما فُهِمَ منها مشابهة الله تعالى لخلقه فى ذاته ، أو صفاته ، أو أفعاله :

١- من النوع الأول : النصوص التى جاء بها ألفاظ الوجه ، واليد ، والعين، والجنب ، والساق ، والقَدَم ، والإصبعين ، والصورة . مما يوهم المشابهة فى ذاته تعالى .

٢- ومن النوع الثانى: ألفاظ الحُب ، والكره ، والرضا ، والغضب ، والعجب. مما يوهم المشابهة فى صفاته تعالى.

٣- ومن النوع الثالث : الاستواء ، والفوقية ، والمجئ ، والنزول ، والإتيان، والضحك والتقرب . مما يوهم المشابهة فى أفعاله تعالى .

وقد تعددت الآراء سلفاً وخلفاً فى فهم هذه النصوص ، وكثر الجدل حولها، بل قد انتقل الجدل إلى تحديد مذهب السلف نفسه بين أنصار الإمام الأشعرى، وأتباع الإمام ابن تيمية ، حتى لتكاد هذه المسألة من بين مسائل العقيدة تحتل مركز الصدارة عند بعض الدعاة المعاصرين ، ولا يجد فى الإسلام مايستحق التناول والعرض فى أوربا وأمريكا إلا استواء الرحمن على العرش ، ونزول ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة ، ووضع قدمه فى النار يوم القيامة.

وخلال قرون مضت كتبت رسائل ، وألفت كتب فى هذا الموضوع تمثل كل الاتجاهات.

ويمكننا أن نحصر أهم المذاهب فيها فى مذهبين:

المذهب الأول : مذهب أغلب السلف :

ويرون وجوب الإيمان بهذه النصوص .كما وردت فى الكتاب والسنة ، وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات ، ونفى المعنى المادى لهذه الألفاظ . فالله تعالى ليس كمثله شئ.

إلى هنا يتفق العلماء فى تحديد مذهب السلف.ثم يختلف أنصار الأشعرى مع أتباع ابن تيمية فى تصوير بقية مذهب السلف:

فيرى الفريق الأول : أن السلف كانوا يفوِّضون معنى هذه الألفاظ إلى الله تعالى ، ولا يحاولون تفسيرها بمعانيها اللغوية المعروفة لهم ، لأنها لاتسع المعانى الحقيقية التى استأثر الله بعلمها . فقد كانوا يُمرونها كما جاءت. فالله أعلم بمرادهبصفاته . فهى من المتشابة الذى لايعلم تأويله إلا الله ، فالسؤال عنها بدعة.

ويرى الفريق الثانى : أن السلف كانوا يفسِّرون هذه الألفاظ ويعلمون معانيها اللغوية الظاهرة التى تدل عليها ، ولا يفوضون معناها إلى الله ، بل حددوا المراد من كل لفظ منها ، وأن الكيفية فقط هى المجهولة لهم ، وأن هذه المسألة ليست من المتشابة . والآيات الواردة فيها آيات محكمات.

يقول ابن تيمية :« فمذهب السلف رضوان الله عنهم إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ، ونفى الكيفية عنها ؛ لأن الكلام فى الصفات فرع

عن الكلام فى الذات . وإثبات الذات إثبات وجود ، لاإثبات كيفية ، وكذلك إثبات الصفات ، وعلى هذا مضى السلف كلهم »(1) فهو يرى أن نفى الكيفية عما هو ليس بثابت يُعَدُّ لغواً من القول.

المذهب الثانى: مذهب أغلب الخلف:

وهم الذين جاءوا بعد القرون الثلاثة المفضلة فى الحديث النبوى . وهم يرون وجوب الإيمان بهذه النصوص ، وتنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه ، وتأويلها تأويلاً يتفق مع تنزيه الله ، فليس كمثله شئ .ولغة العرب فيها الحقيقة والمجاز المختلف الأنواع ، وقد نزل القرآن بها ، فلا بدَّ من فهمه على قواعدها ، وأساليب العرب فى التعبير عن المعانى.

ويقولون : إن الراسخين فى العلم ممن يعلم تأويله . وقد استعملوا التأويل استعمال الطبيب للدواء حين يجد الداء . والداء هنا هو التشبيه.

وعلى هذا المذهب الغالبية العظمى من مفسرى القرآن الكريم . وشراح السنة المطهرة.

بهذا الخلاف الذى أحدثه ابن تيمية فى تحديد مذهب السلف مخالفاً جمهور العلماء خلال قرون سبقته صارت المذاهب فى هذا النوع من صفاته تعالى ثلاثة نوجزها فيما يلى:

١ - مذهب السلف كما فهمه جمهور العلماء :

فقد كان السلف على علم بدلالات هذه الألفاظ اللغوية (البشرية الحسية)، فليسوا جاهلين بمعانيها ، وهم على علم بأن لها دلالات على معانٍ حقيقية

(1) مجموع الفتاوى ٦/٤

تناسب ذاته المقدسة ، لم يتنطعوا للوصول بعقولهم إلى حقائقها وتفسيرها . بل فوضوا علم حقائقها إلى الله تعالى ، وأمروها كما جاءت.

ولذلك عُرف مذهبهم بمذهب (المفوضين).

وكان بعض السلف يؤول بعض هذه الصفات ، وقد ذكرنا عشرات المواضع من تأويل الصحابة ، والتابعين وأتباعهم خلال القرون الثلاثة فى كتابنا :(تأويل السلف لصفات الله تعالى).

مذهب ابن تيمية:

وهو تفسير هذه الألفاظ بمعانيها اللغوية الظاهرة ، ووصف الله بها حقيقة ، ثم تنزيهه عن خلقه بكلمة : (بلا كيف) لمنع تماثل صفاته لصفات عباده . ورفض تأويلها رفضاً باتاً ، فهى لاتحتاج لتأويل.يقول ابن تيمية مثلاً: « الله معنا حقيقة،وهو فوق العرش حقيقة »[1]وقد عُرف هذا المذهب بمذهب:(المثبتين).

مذهب الخلف:

وأهم مايميز هذا المذهب –كما سبق أن ذكرنا– هو الأخذ بمبدأ التأويل، وإعمال العقل فى فهم معنى اللفظ فى سياقه ، وليس فصل الكلمة عما قبلها وما بعدها . فقد يخرجها السياق عن أن تكون من صفاته تعالى.

وعُرف هذا المذهب بمذهب: (المؤولين).

وعلى هذا المذهب الغالبية العظمى من مفسرى القرآن الكريم ، وشراح الحديث النبوى الشريف.

---

(۱) مجموع الفتاوى ١٠٣/٥

وإذا بحثنا أسباب اتجاه هذا المذهب إلى الأخذ بالتأويل . نجد أن أهم هذه الأسباب مايأتى:

السبب الأول: رفع التعارض بين النص ، وبين الواقع الخارجى المحسوس.

السبب الثانى: رفع التعارض الظاهرى بين بعض النصوص وبعضها .

السبب الثالث: رفع التعارض الظاهرى بين بعض النصوص ، وبين الدليل العقلى اليقينى . فالشرع لايصادم العقل.

١ - فمن أمثلة السبب الأول:

قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ الأنفال: ١٧

فإذا تأملت الآية الكريمة تجد أن الله تعالى نفى قتل المسلمين للمشركين فى غزوة بدر بقوله تعالى : (فلم تقتلوهم).

بينما الذى حدث فى الواقع أنهم قتلوهم . فهنا تعارض ظاهرى بين النص والواقع . فهل قتلوهم ، أو لم يقتلوهم ؟

إن قلنا : قتلوهم ، خالفنا نص الآية : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم).

وإن قلنا : لم يقتلوهم ، خالفنا الواقع ، الذى حدث ، وهو أنهم قتلوهم.

إذن لابدَّ من التأويل لرفع التعارض الظاهرى.

وشئ آخر فى الآية . وهو قوله تعالى: (ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى).

فالفعل الأول (وما رميت) ينفى أن الرسول قد رمى . بينما الواقع الذى حدث أن الرسول ﷺ أخذ قبضةً من الحصى ، ورمى بها المشركين .

والفعل الثانى فى الآية (إذ رميت) يثبت أن الرسول رمى.

فهل رمى الرسول ، أو لم يَرْمِ ؟ إن الفعلين متعارضان بالنفى والإثبات والفعل المنفى معارض بالواقع الذى حدث.

إذن لابدَّ من التأويل .

تأمل كيف أوّل الآية شيخ المفسرين الإمام الطبرى ت ٣١٠هـ رحمه الله :

قال : « فلم تقتلوا المشركين أيها المؤمنون أنتم ، ولكن الله قتلهم ، وأضاف جل ثناؤه قتلهم إلى نفسه ، ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين ، إذ كان جل ثناؤه هو مُسبب قتلهم ، ومن أمره كان قتال المؤمنين إياهم ، ففى ذلك أدل الدليل على فساد قول المنكرين أن يكون لله فى أفعال خلقه صنع به وصلوا إليها . وكذلك قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام :(ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى) فأضاف الرمى إلى نبى الله ، ثم نفاه عنه . وأخبر عن نفسه أنه هو الرامى؛ إذ كان جل ثناؤه هو الموصل المرمىَّ به إلى الذين رُمُوا بـه مـن المشركين، والمُسبب الرمية لرسوله.

فيقال للمسلمين ماذكرنا : قد علمتم إضافة الله رَمْىَ نبيه ﷺ المشركين إلى نفسه ، بعد وصفه نبيه به ، وإضافته إليه ذلك فعل واحد كان من الله بتسبيبه وتسديده ، ومن رسول الله ﷺ الحذفُ والإرسال »[1]. أى الرمى.

٢- ومن أمثلة السبب الثانى:

وهو رفع التعارض الظاهرى بين نصين.بالإضافة إلى مافى الآية السابقة،قوله تعالى:﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ التوبة/ ٦٧ وقوله تعالى:﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ

(١) جامع البيان ٢٠٤/٩

يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ السجدة/١٤ مع قوله سبحانه:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ مريم/٦٤ وقوله سبحانه:﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ طه/٥٢

ففى الآيتين الأولين أثبت النسيان ، وفى الأخرين نفاه .

ولما كان (النسيان) نقصاً لايوصف الله به ، ولايمكن أن يقال : لله تعالى نسيان حقيقى يليق بذاته ، أو أنه يتسى بلا كيف ! وجب تأويله فى الآيتين الأولين بأن الله جزاهم بأن صيَّرهم بمنزلة المنسى من الثواب والجزاء ، وأنهم لما تركوا ذكر الله بالعبادة . ترك ذكرهم بالرحمة والإحسان . فارتفع التعارض.

٣- ومن أمثلة السبب الثالث:

وهو رفع التعارض الظاهرى بين النصوص وبين الدليل العقلى اليقينى الذى يثبت لله كل كمال يليق به ، وينزهه عن كل نقص لايليق به . من امثلة ذلك الأحاديث النبوية التالية:

(أ) قال ﷺ: « عليكم من العمل ماتطيقون . فوالله لايَمَـلُّ الله حـتى تملُّوا»[1].

إن الملل وهو استقال الشئ ، ونفور النفس عنه بعد محبته . نفص لايجـوز وصف الله به ، ولا يمكن أن تقول : إن له تعالى صفة ملل تليق بذاته ، أو أنه يملُّ بلاكيف!

إذن لابدَّ من تأويله ، بأنه من باب المقابلة اللفظية مجازاً . كما قال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فلماكان تعالى يقطع ثوابه عمن قطع العمل ملَلاً، عبَّر عن ذلك بالملل من باب تسمية الشئ باسم مجازه.

(١) رواه البخارى فى الإيمان – الفتح ١٢٤/١

(ب) قال ﷺ:«إن الله عزوجل يقول يوم القيامة : يابن آدم . مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك . وأنت ربُّ العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض ، فلم تعده . أماعلمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده ؟ يابن آدم ، استطعمتك ، فلم تطعمنى ؟ قال : ياربِّ وكيف أطعمك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : أماعلمت أنه استطعمك عبدى فلان ، فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته ، لوجدت ذلك عندى . يابن آدم . استسقيتك، فلم تسقنى . قال : ياربِّ وكيف أسقيك وأنت ربُّ العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان ، فلم تسقه . أما إنك لو سقيته ، وجدت ذلك عندى ؟ »(١) .

إن المرض ، والجوع ، والعطش نقائص . يستحيل أن يوصف بها الربُّ سبحانه وتعالى.

ولا يمكن أن نقول : إن له مرضاً ، وجوعاً ، وعطشاً يليق به.

ولايجوز أن نقول : إنه يمرض ، ويجوع ، ويعطش بلا كيف!

وإذا تأملنا الحديث الشريف ، وجدناه يشير إلى تأويل هذه الألفاظ الثلاثة: فليس المرض مرضه تعالى ، وليس الجوع جوعه ، وليس العطش عطشه . إنما ذلك لعبده ، فهو مجاز.

وأضف إلى ذلك قوله: « لوجدتنى عنده » أى وجدت ثوابى ، وليس ذاتى، وهذا تأويل أيضاً.

(ج) قال ﷺ: « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله »(٢).

(١) رواه مسلم فى البر والصلة ١٩٩٠/٤
(٢) رواه مسلم فى الزكاة ٧١٥/٢

إن (الظل) لايكون إلا لجسم مادى معتم يحجب الضياء والنور. فهل (الله) جسم من الأجسام حتى يكون له ظل ؟ أو تقول : إن لله ظلاً يليق بذاته . لايُشبه ظل الأجسام ؟ أو تقول : إن لله ظلاً بلاكيف؟

لابدَّ من تأويل الحديث بأن الظل ظل عرشه ، وقد وردت إحدى روايات الحديث هكذا : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه ».

(د) قال ﷺ: «قال الله عزوجل : إذا تقرَّب عبدى منى شبراً ، تقربت منه ذراعاً . وإذا تقرب منى ذراعاً ، تقربت منه باعاً - أوبوعاً - وإذا أتانى يمشى ، أتيته هرولة»(١) .

وفى رواية :« أتيته أهرول »(٢).

فهل يعنى قوله : « تقربت منه » قُرْبَ ذات الحق من ذات العبد . وقوله : « أتيته هرولة » أو« أهرول » إثبات صفة الهرولة أو مشى يليق بذاته ، أو يهرول بلاكيف!

أو أن المراد : تصوير سرعة تفضل الله على عبده المقبل عليه . وعظم جزائه لمن توجه إليه.

(هـ) قال ﷺ: « إن الله قال : من عادى لى ولياً،فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بشئ أحبَّ إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل ، حتى أحبه . فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به . ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطيته ، ولئن

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء ٢٠٦٧/٤
(٢) رواه مسلم فى التوبة ٢١٠٢/٤

استعاذ بى لأعيذنه . وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن. يكره الموت ، وأنا أكره مساءته »[1].

فهل يعنى هذا أن الله يكون سمع الولى ، وبصره ، ويده ، ورجله ، فيكون جزءاً من العبد ؟

أو يؤول بأن المراد تصوير نصرة وتأييد الله لوليه . فيكون حافظ سمعه ، ومسدد بصره ، وهكذا ؟

ثم إن (التردد) المذكور فى الحديث صفة نقص لاتليق بذاته تعالى. لأنه فعل من لايعلم عاقبة الأمور ، ويتحير بين فعل الشئ وتركه ، ولايمكن أن نقول : إن لله تردداً يليق بذاته ، أو أنه يتردد بلا كيف !

فلابدَّ من تأويله بأن الله يفعل فعلاً تُشبه صورته صورة فعل من يتردد . لبيان عطفه على عبده ، ولطفه به ، وشفقته عليه .

* * *

وبعد أن عرضت المذاهب الثلاثة فى هذه الصفات أود أن أنبّه إلى أمور:

أولاً : هذا النوع من صفات الله تعالى ليس من الصفات العقلية التى يصل إليها العقل بالتفكير فى العالم .كصفات العلم ، والإرادة ، والقدرة ، والحياة . إنما هو من الصفات التى تؤخذ من الكتاب والسنة.

وقد يكون الإيمان بها دون العلم بمعناها أمراً تعبدياً . وكم من أمر تعبدنا به غير واضح العلة والحكمة.

ثانياً : ليس كل مايضاف إلى الله يكون صفة له ، فقد أضاف إليه أموراً ليست من صفاته .كبيت الله ، وعبد الله ، وناقة الله ، وروح الله.

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق الفتح ٣٤٨/١١

ثالثا : لايلزم من إسناد بعض الأفعال إليه تعالى فى القرآن والسنة أن له صفات من جنسها . مثال ذلك :

- ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ التوبة/٦٧ فهل من صفاته النسيان!!
- ﴿ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ الإنسان فهل من صفاته السقى!!
- ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ المدثر فهل من صفاته الإرهاق!!

رابعاً : لايجوز أن نجمع الألفاظ فى موضع واحد ، حتى لاندع للخيال فرصة، ولا للوهم سبيلاً لرسم صورة معينة فى الذهن لذات الحق تعالى . فإذا ما تأملنا كل كلمة منها فى سياقها ، وجدناها أبعد ماتكون عن مماثلة المخلوقين.

خامساً : لابد لمن يتعرض لبيان معانى هذه الألفاظ من العلم بأساليب اللغة العربية ، وطرقها فى التعبير عن المعانى . فقد قال الإمام مالك : « لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغات العرب إلا جعلته نكالاً »[1].

وعقد الإمام الشافعى فى رسالته الشهيرة باباً بعنوان : (الصنف الذى يُبيِّنُ سياقُه معناه)[2] تناول فيه:كيف يحدد السياق ، أو مايسميه علماء البلاغة (القرينة) المراد من اللفظ ، وهو ما اصطلح عليه علماء البلاغة بالمعنى المجازى، إذ المعنى الحقيقى لايحتاج إلى قرينة . وكلامه فى غاية النفاسة.

وقال رحمه الله عن القرآن : « وأن منه ظاهراً يُعرف فى سياقه أنه يراد به غير ظاهره »[3].

ويرى الإمام ابن قدامة الحنبلى فى كتابه : (المغنى) أن إنكار المجاز مكابرة.

---

(١) صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام للسيوطى ٩٦/١
(٢) رسالة الشافعى ص٦٢ تحقيق أحمد شاكر طبعة دار التراث
(٣) المرجع السابق ص٥٢

رأيي في الموضوع :

إنني أميل إلى مذهب السلف كما صوره جمهور العلماء ، وأرى أنه المذهب الأسلم والأحكم والأعلم.

واستشهد عليه بكلام السلف أنفسهم:

١- قال الأوزعي : سئل (مكحول) و (الزُّهرى) عن تفسير الأحاديث فقال: « أمروها كما جاءت » ورُوِى أيضاً عن الوليد بن مسلم قال: سألت (مالك بن أنس) و(سفيان الثورى) ، (الليث بن سعد) و (الأوزاعى) عن الأخبار التي جاءت فى الصفات . فقالوا : أمِرُّوها كما جاءت بلاكيف .. والزهرى ومكحول هما أعلم التابعين فى وماهم ، والأربعة الباقون أئمة الدنيا فى عصر تابعى التابعين »[1].

٢- قال(محمد بن الحسن)١٣١-١٨٩هـ صاحب أبي حنيفة : « اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن ، والأحاديث التى جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ فى صفة الرب عزوجل ، من غير تفسير ، ولاوصف ، ولاتشبيه ، فمن فسَّر اليوم شيئاً من ذلك ، فقد خرج عما كان عليه النبى ﷺ ، وفارق الجماعة ، فإنهم لم يصفوا،ولم يفسروا . ولكن أفتوا بما فى الكتاب والسنة . ثم سكتوا »[2].

٣- وعن سفيان بن عيينة قال : سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى؟

قال الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ المبين ، وعلينا التصديق .

---

(١) الفتوى الحموية لابن تيمية ص٢٧ (٢) المرجع السابق ص٣٣

وهذا الكلام مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبي عبد الرحمن . قال: الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »[1].

٤- وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : « آمنت بالله ، وبما جاء عن الله، على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله ، على مراد رسول الله»[2].

قال ابن كثير : « وقد روى عن الربيع وغير واحد من رءوس أصحابه – أى الشافعى– مايدل على أنه كان يَمُرُّ بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ، ولاتشبيه ، ولاتعطيل ، ولاتحريف على طريقة السلف »[3].

٥- وقال الإمام أحمد بن حنبل وقد سئل عن هذه الصفات : « نؤمن بها ، ونُصَدِّق بها ، لاكيف ، ولامعنى ، ولانردُّ شيئاً منها ، ونعلم أن ماجاء به الرسول حق ، ولانرد على رسول الله ﷺ ، ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه ، بلا حد ولا غاية »[4].

٦- وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلّام ت ٢٢٤هـ « هذه الأحاديث هى عندنا حق ، حملها الثقات بعضهم عن بعض . غير أنا إذا سئلنا عن تفسيرها لانفسرها ، وما أدركنا أحداً يفسرها »[5].

هذه أقوال كبار علماء السلف فى القرون الثلاثة الأولى حول ماينبغى على المسلم تجاه هذه النصوص ، ويتلخص-كما سبق- فى أمرين: إقرارها، وإمرارها.

---

(١) المرجع السابق ص٢٧
(٢) لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسى ص٦
(٣) البداية والنهاية ٢٦٥/١٠
(٤) لمعة الاعتقاد ص٦
(٥) فتاوى ابن تيمية ٥١/٥

ألا يكفينا ماكفاهم !! ألا نقنع بما قنع به هؤلاء الأكابر !!

أذلك خير: أم هذا الجدل الذى يُضيع الوقت ، ويبدد الجهد ، ويورث الضغينة فى قلوب المؤمنين من شبابنا المعاصر؟

مع الأخذ فى الاعتبار أنَّ التأويل قد ورد عن السلف لبعض الآيات كما سبق أن أشرنا . وقد أفردنا له بحثاً مستقلاً والحمد لله.

٥ - صفة الوحدانية:

ومعنى وحدانية الله تعالى : عدم التعدد فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله.فلا يستحق أن يُعبد سواه . فذاته تعالى ليست مركبة من أجزاء، ولذلك قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فالشئ قد يكون واحداً ومع ذلك يكون مركباً من أجزاء ، أما الله تعالى فهو أحد ليس مركباً من أجزاء . ولا توجد ذات تشبه ذاته تعالى .

ومعنى عدم التعدد فى الصفات عدم وجود صفتين لله من نوع واحد كعلمين وقدرتين ، وعدم وجود صفة لغيره تشبه صفته تعالى.

وأما عدم التعدد فى الأفعال فمعناه عدم وجود فعل لأحد غيره يشبه فعله تعالى:

هذا معنى الوحدانية عند أهل السنة. كما ذكره العلماء عبر القرون إلى أن جاء (ابن تيمية) فقسَّم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

(١) توحيد الألوهية. (٢) توحيد الربوبية. (٣) توحيد الأسماء والصفات.

وقال : إن الرسل لم يُبعثوا إلا لتوحيد الألوهية . وهو : إفراد الله بالعبادة.

وأما توحيد الربوبية وهو: اعتقاد أن الله رب العالمين المتصرف فى أمورهم ،

فلم يختلف فيه أحد من البشر ، وزعم أن الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء، ويتشفعون بهم هم عابدون لهم ، كعبَّاد الأوثان . ونرد عليه بما يلى:

(أ) أن هذا التقسيم بدعة أبتدعها ابن تيمية ، لم نجده عند أحد من السلف.

(ب) زعمه بأن توحيد الربوبية لم يخالف فيه أحد من البشر باطل ، بدليل وجود المنكرين لوجود الله فى كل عصر ، واستدلاله بقوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الزمر/٣٨ لايدل على مازعم ، لأن الآية فى نوع من الكفار ، وهناك أنواع أخرى أشارت إليها آيات أخرى. مثل قوله تعالى:﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الجاثية/٢٤ وقوله تعالى :﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾ فصلت

فهم منكرون لتوحيد الربوبية وقال تعالى:﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأنعام/١٠٨ فأين توحيدهم بعد هذا السب لله تعالى ؟ وفى قصة صاحب الجنتين :﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾ ثم يقول بعدها :﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢﴾ الكهف/٤٢ وقال تعالى:

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ يوسف/٣٩

فكيف يقال إنه ليس فى البشر من يشرك فى الربوبية ؟ وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ﴾ آل عمران/ ٨٠ والآية واضحة فى تعدد الأرباب عندهم : وأين توحيد الربوبية عند من حاجَّ إبراهيم فى ربه!!

(جـ) والواقع أنه لامعنى لتقسيمه هذا لأن الإله الحق هو الرب الحق ، والإله الباطل هو الرب الباطل ، فالألوهية والربوبية متلازمان ، لاينفصلان ، والقول بأحدهما قول بالأخر ، والإشراك فى أحدهما إشراك فى الأخر ، وما لايعتقد له ربوبية يستحيل أن يتخذ معبوداً.

ولهذا نجد الأنبياء يكتفون فى الدعوة إلى التوحيد بأحدهما ، ويضعون كلاً منهما موضع الآخر . حتى فرعون فعل ذلك . فقال مرة : (أنا ربكم الأعلى) وقال مرة : (ماعلمت لكم من إله غيرى) فنسب لنفسه الربوبية ، كما نسب لنفسه الألوهية بعدما قال لهم ماذكره القرآن : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الشعراء وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ المؤمنون أى لو كان معه إله لكان رباً وخالقاً ، ولو كان كذلك ، لذهب كل إله بما خلق ، فالقرآن يقرر أن من أشرك فى استحقاق العبادة كان مشركاً لامحالة فى الربوبية.

(د) وأما التوسل بالصالحين ، والاستعانة ، والاستغاثة بالمخلوق الخ مما أدخله فى مفهوم العبادة ، وحكم على فاعله بالشرك فى الألوهية ، فلابد من بيان معنى العبادة.

فالعبادة فى الشرع هى : الخضوع والتذلل لمن يعتقد ربوبيته فإذا فعل المسلم أمراً بخضوع وتذلل ، ولم يعتقد ربوبية المخضوع له ، لم تكن عبادة شرعاً ، ولو كان سجوداً ، فسجود الملائكة لآدم ليس عبادة له : لأنهم لم يعتقدوا ربوبيته فهذه الأفعال التى أدخلها فى مفهوم العبادة ليست منها ، فليست شركاً ، وليس فاعلها من المشركين طالما أنه مؤمن بأن الله وحده هو المعطى المانع ، الضار النافع.

الأدلة النقلية:

قال تعالى : • ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ البقرة/ ٢٥٥

• ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء/ ٢٢

• ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ الإسراء

• ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ المؤمنون/ ٩١

• ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى

• ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص

الأدلة العقلية:

إذا أبطلنا التعدد فى الذات بمعنى وجود إلهين ، فقد أبطلنا التعدد فى الصفات بمعنى وجود صفة لغيره تشبه صفته تعالى ، وأبطلنا التعدد فى الأفعال

بمعنى وجود فعل لغيره يشبه فعله تعالى ، لأن كلا منهما راجع إلى تعدد الذات .

وبناء على ذلك فنحن فى حاجة إلى ثلاثة أدلة:

١- لنفى التعدد فى الذات بمعنى عدم تركبها من أجزاء.

٢- ولنفى التعدد فى الذات بمعنى عدم وجود إلهين.

٣- ولنفى تعدد الصفات بمعنى عدم وجود صفتين له من نوع واحد.

وإليك الأدلة:

أولاً : أما الدليل على نفى التعدد فى الذات بمعنى عدم تركبها من أجزاء .

فهو أنه لو تركبت ذاته تعالى من أجزاء ، لكان محتاجاً إلى أجزائه ، والاحتياج دليل الحدوث ، والحدوث عليه محال .

ولكان محتاجاً إلى من ركّبه ، فلا يكون واجب الوجود .

ثانياً : وأما دليل نفى التعدد فى الذات بمعنى عدم وجود إلهين ، فهو : لو فُرضَ وجود إلهين ، كل منهما متصف بصفات الألوهية من العلم والإرادة والقدرة إلخ فإما أن تتفق إرادتهما ، أو تختلفا ، وكل من الفرضين محال .

فوجود إلهين محال.

وذلك أنه لوتعلقت إرادة أحدهما بخلق شئ مثلاً ، وتعلقت إرادة الآخر بعدم خلقه — وهذه حالة الاختلاف - فالاحتمالات العقلية ثلاثة :

(أ) إما أن ينفذ مرادهما معاً . وهو محال ؛ لأنه اجتماع للنقيضين (الخلق وعدم الخلق).

(ب) وإما ألا ينفذ مرادهما معاً ، وهو محال ؛ لأنه رفع للنقيضين ، ويلزم عجزهما ، والعجز على الإله محال.

(جـ) وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر . وهذا يستلزم عجز من لم تنفذ إرادته . وبما أن الثانى مثله ، فهو عاجز أيضاً ؛ لأن ماثبت لأحد المثلين يثبت للآخر.

وأما بطلان احتمال اتفاق إرادة الإلهين على شئ واحد مثل: إيجاد محمد مثلاً ، فالاحتمالات العقلية أربعة :

(أ) أن يوجداه معاً على سبيل الاستقلال فى وقت واحد ، وهو محال ؛ لأنه يؤدى إلى اجتماع مؤثرين على أثر واحد.

(ب) أن يوجداه معاً على سبيل الترتيب ، بأن يوجده أحدهما ، ثم يوجده الآخر، وهو محال ؛ لأنه تحصيل الحاصل.

(جـ) أن يوجداه على سبيل المعاونة ، فكل منهما يعاون زميله فى إيجاده . وهومحال ؛ لأنه يلزمه أيضاً عجز كل منهما ، واحتياجه إلى الآخر.

(د) أن يوجداه على سبيل التقسيم ، بأن يوجد أحدهما بعضه ، والآخر بعضه . وهومحال ؛ لأنه يلزمه أيضاً عجزكل منهما ، فكل منهما لايقدر على التصرف فيما تصرف فيه زميله.

وإذا بطلت هذه الاحتمالات سواء فى حالة الاختلاف ، أو فى حالة الاتفاق، انتفى القول بتعدد الذوات ، وثبتت الوحدة لله تعالى.

ثالثاً : وأما الدليل على نفى التعدد فى الصفات ، بمعنى عدم وجود صفتين لله تعالى من نوع واحد كقدرتين مثلاً فلأنه يلزم عليه أحد محالين:

(أ) إن كان الإيجاد بهما معاً ، يلزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد.

(ب) وإن كان الإيجاد بإحداهما دون الأخرى ، يلزم عليه التعطيل للأخرى، وكونها لافائدة منها.

وفى قوله ﷺ : « اللهم إنى استخيرك بعلمك،وأستقدرك بقدرتك» مايشير إلى أنه (علم) واحد ، و(قدرة) واحدة.

رأى النصارى فى المسيح:

حرَّف النصارى معنى وحدانية الله تعالى - بعد سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ولأهمية هذا الموضوع وخطورته عرض القرآن الكريم آراءهم. وردَّ عليها بالأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة . وبأسلوب بليغ أخَّاذ قريب من الفطرة السليمة . والعقل المستنير . وفيما يلى نورد بعض هذه المواضع :

الموضع الأول- قوله تعالى:﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (١٧١) لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا (١٧٢) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (١٧٣)﴾ النساء

والمعنى : ينهى الله تعالى – اليهود والنصارى عن الغلو فى الدين ، والغلو هو مجاوزة الحد بالإفراط أو التفريط . وقد تجاوز اليهود الحد فى سيدنا عيسى

حتى رموا أمه بالزنا ، وتجاوز النصارى الحد فيه حتى رفعوه إلى مرتبة الإله ، أو ابن الإله(١).

يقول الله لهم : لاتقولوا على الله إلا القول الحق الثابت بالأدلة العقلية القاطعة ، أو المؤيد بالأدلة النقلية المتواترة . فعيسى رسول كباقى الرسل ، أيدّه الله بالمعجزات.

قال تعالى:﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٤٩)﴾ آل عمران

والمعجزة الخامسة له نزول المائدة بطلبه.كما جاء فى سورة (المائدة١١٤/١١٥).

وهو كلمة الله مكون بكلمة (كن) التكوينية . فإن الله تعالى : (إذا قضى أمراً. فإنما يقول له كن فيكون) فكل مولود له سببان : أحدهما السبب الظاهر. وهو اتصال والديه . وثانيهما السبب الخفى . وهو إرادة الله تعالى المعبَّر عنها بكلمة (كن) فعيسى وجد فى خلقه السبب الثانى فقط.

وقيل: معنى الكلمة . الآية .كما فى قوله تعالى : ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ التحريم/١٢ وقوله : ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ لقمان/ ٢٧ أى آياته.

وقيل : معنى الكلمة . البشارة . كما فى قوله تعالى:﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ آل عمران/٤٥ وهو روح من الله « قال أبى ابن كعب . خلق الله أرواح بنى آدم لما أخذ عليهم

(١) انظر: محمد أبو زهرة - محاضرات فى النصرانية ص١٧.

الميثاق ، ثم ردّها إلى صلب آدم ، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام- فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم ، فكان منه عيسى عليه السلام . لهذا قال وروح منه »(١).

وليست (مِنْ) فى الآية للتبعيض ، وإنما لابتداء الغاية الغاية ، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ الجاثية/١٣ وإلا لكان كل شئ بعضاً من الله تعالى.

وقيل : وروح منه أى : ورحمة منه . فقد كان رحمة لمن آمن بـه . قـال تعالى :﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ مريم/ ٢١

وقيل : معنى الروح : جبريل عليه السلام . قال تعالى : ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ مريم/١٧ وقد قال تعالى عن سيدنا آدم﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر

وهذه الآية تدعو إلى المساواة بين آدم والمسيح فى أنهما من روح الله . وتشير إلى فضل آدم على المسيح بسجود الملائكة له.

هذه حقيقة عيسى ، فآمنوا بالله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وآمنوا برسله جميعاً . ولاتفرقوا بين نبى ونبى ، فتجعلوا عيسى إلها.

ولاتقولوا : آلهتنا ثلاثة الله والمسيح ومريم ، ويؤيده قولـه :﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ المائدة/١١٦

(١) انظر : تفسير القرطبى ص ٢٠١٨ ط. الشعب.

أو لا تقولوا هم ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس ، ويريدون بالأب الذات ، وبالابن العلم أو عيسى ، وروح القدس الحياة ، وكل من الثلاثة عين الآخر ، وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله واحد.

إن هذا القول يتنافى مع العقل السليم ، والفطرة المستقيمة ، إذ كيف يكون الإله واحداً وثلاثة ؟ وكيف يحل الإله فى الإنسان ؟ وكيف يتحد به ؟

ثم ينهاهم الحق عن الشرك ، ويطلب منهم ماهو خير لهم ، وهو الإيمان بإله واحد منزّه عن أن يكون له ولد ، فليس الإله فى حاجة إلى الولد الذى يعاونه عندما يكبر ، ويحمل اسمه وذكره ، ويرثه بعد موته ، فالله هو الحـى الـذى لايموت.

لن يأنف . ولن يتكبر المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون الذين هم أعظم قوة من المسيح أن يكونوا عبيداً طـائعين لله ، ومـن يسـتنكف ويستكبر عن عبادة الله ، فسيحشرهم إليه جميعاً ليجازيهم . فأما الذين أمنوا به،وعملوا الصالحات من الأعمال ، فيوفيهم أجورهم كاملة ، بل إنه يزيدهم من فضله، فهو واسع الفضل . وأما الذين استنكفوا واستكبروا عن عبادته ، فإنه يعذبهم عذاباً أليماً ، ولايجدون ولياً لهم ، ولانصيراً ينصرهم من الله تعالى.

الموضع الثانى – قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ المائدة

والمعنى : حكم الله بالكفر على أولئك الذين ادعوا أن الله هو المسيح ابن مريم. والنصارى اليوم طوائف أشهرها : الكاثوليك ، والأرثرذكس ، والبروتستانت ، وهو يُصرِّحون بألوهية المسيح فى أقوالهم وكتاباتهم.

وقد ورد فى إنجيل يوحنا هذا النص : « فى البدء كانت الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله هو الكلمة ، ويعنون بالكلمة « المسيح » فيكون معنى النص : الله هو المسيح.

ولقد استدلوا على أن الله هو المسيح بن مريم بما ظهر على يديه من الآيات والأفعال التى يعجز عنها البشر ، ولا يقوم بها إلا الإله .كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وكلامه فى المهد.

وجوابنا على هذا الاستدلال : أنه معارض بموسى عليه السلام ، ومـاظهر على يديه من الآيات ، فإنه قلب العصا ثعبانا ، وفلق البحر ، وغير ذلك . وقلب الجماد حياً أصعب فى العقل من إعادة الميت حياً ، فإذا لم يُوجب قلب العصا حية كون موسى إلهاً ، فلا يوجب إحياء الموتى ألوهية عيسى من باب أولى.

وقد ثبت أن كلا من إلياس واليسع أحيى الموتى ، وكذلك حزقيال . فإذا كان عيسى قد أحيى ثلاثة مثلاً فى كل حياته . فإن حزقيال أحيى ألوفا.

وأما كلامه فى المهد ، فإننا نطالبهم بنص كلامه الذى يخفونه ؛ لأن فيه الرد الدامغ عليهم.

وإذا كان عيسى إلهاً ، فلماذا لم يدفع الموت عن أمه ؟ ولماذا لم يدفع الصلب عن نفسه الذى هو شر أنواع الهلاك ؟ « فقد قيل فى الإنجيل : (ملعون كل من عُلِّق على خشبة) من إحدى رسائل بولس الرسول ، وثبت

أن المسيح استغاث بربه ضارعاً خائفاً وجلاً ، ليصرف عنه ذلك الكأس. فلم يجب إلى طلبه . فى إنجيل متى : إلهى إلهى . لماذا تركتنى ؟ » . (يأبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذا الكأس..إن لم يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك)(١).

فإذا كان إلهاً ؟ فبمن يستنجد وهو معلق على خشبة الصليب – فى زعمهم؟ يرحم الله القائل:

عجباً للمسيح بين النصارى ... حيث قالوا :إن الإلهَ أبوه

ثم قالوا : ابنُ الإله إلهٌ ... ثم قاموا بجهلهم عبدوه

ليت شعرى ، وليتنى كنت أدرى ... ساعةَ الصلب أين كان أبوه

هل كان يستنجد بنفسه . أو هناك إله آخر كان يستنجد به ؟

وإذا كان إلهاً ؟ فلماذا استسلم للرومان وصُلب - فى زعمهم - ولماذا لم يجاهد لتخليصهم من الظلم والاضطهاد ؟ وإن كان قد جاء ليخلص العالم كله. فهل أثمرت دعوته ؟ فأين الذين خلَّصهم ؟ إن التاريخ يروى لنا أن النصارى بعد رفع عيسى لقوا من الاضطهاد والظلم مالم يلق بشر(٢).

وإذا لم تثمر دعوته . فهل عجز عن ذلك ؟ وهل يعتبر العاجز إلهاً ؟

قل يامحمد ﷺ – رداً عليهم ودفعاً لقولهم : مَن يمنع من إرادة الله تعالى– وقدرته شيئاً إن أراد أن يهلك ويميت المسيح بن مريم ، وأمه ، وكل من فى الأرض ؟ اللهم لاأحد . فإذن ليس المسيح إلهاً.

(١) انظر: محمد محمود حجازى – تفسير الواضح ٤٠/٦
(٢) انظر: محاضرات فى النصرانية ص ٢٨-٣٢

وإذا كانت ولادة عيسى . وما ظهر على يديه من الآيات هو سبب شبهة النصارى . فإن الله هو مالك السموات والأرض . خلقهما من عدم . وخلق ما بينهما بأسباب خلقها . فخلق البشر من ذكر وأنثى ، وخلق حواء من ذكر فقط ، وخلق عيسى من أنثى فقط ، وخلق آدم من غير ذكر وأنثى . يخلق مايشاء خلقه ، فهو على كل شئ قدير.

الوضع الثالث – قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ المائدة

المعنى : لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، وهم النصارى القائلون باتحاد اللاهوت أى الإله بالناسوت أى الجسم الإنسانى لعيسى ، فردَّ عليهم بما ذكره عيسى نفسه . إذ طلب من بنى إسرائيل أن يعبدوا الله ربه هو، ورب بنى اسرائيل ، ورب السموات والأرض ومابينهما ، وحذَّرهم من الشرك بالله ، وبيَّن لهم عاقبته ، فإن من يشرك بالله . فقد حرم عليه الجنة ، وسيدخله ناراً خالداً فيها . فليس للظالمين أنفسهم بالشرك أنصار ينصرونهم من عذاب الله يوم القيامة.

وإذا سألناهم عن معنى اتحاد اللاهوت فى الناسوت قالوا : هو ظهور الكلمة على جسم عيسى ، كظهور الصورة فى المرآة ، أو كامتزاج اللبن بالماء ، أو كالحديدة إذا حميت فى النار.

ونقول لهم: إن ذلك كله باطل:

ففى **المثال الأول** - الصورة لم تنتقل إلى المرآة لا اختلاطاً ، ولاامتزاجاً ، ولامجاورة ، وإنما هى عرض زائل بسبب انعكاس الضوء على الجسم المرئى.

وفى **المثال الثانى** - الامتزاج حدث بين جسمين : الماء واللبن ، والله ليس جسماً.

وفى **المثال الثالث** - الحرارة الداخلة على الحديدة عرض زائل ، كان بواسطة مجاورة النار للحديدة.

ونقول لهم أيضاً رداً على دعواهم حلول اللاهوت فى الناسوت:

إما أن يحل اللاهوت كله فى الناسوت ، أو يحل جزء منه فقط فيه ، والاثنان باطلان:

أما الأول : فلأن اللاهوت إن كان جسماً ، فحينئذ يكون حلوله فى الناسوت عبارة عن اختلاط أجزائه بأجزاء الناسوت ، وذلك يُوجب التفرق فى أجزائه وتركبه، وهذا ينافى الألوهية.

وإن كان عرضاً ، كان محتاجاً إلى محل يقوم به ، والاحتياج إلى الغير ينافى الألوهية.

وأما الثانى- وهو حلول جزء ، فإنه يلزمه تركب الإله ، وعند انفصال هذا الجزء يكون ناقصاً.

ونقول لهم : يلزم على دعوى الاتحاد : إما أن ينقلب الحادث قديماً ، أو القديم حادثاً ، أو يبقى كل منهما على حاله ، ومن المحال أن ينقلب الحادث قديماً ، أو القديم حادثاً ، فإن هذا قلب للحقائق ، وإن بقى كل منهما على حاله ، فأين الاتحاد ؟

ونقول لهم : إن اتحاد اللاهوت بالناسوت . إما أن يكون كمالاً ، أو نقصاً: فإن قالوا : إنه نقص . فقد وصفوه تعالى بالنقص ، وهو منزه عنه.

وإن قالوا : إنه كمال ، يلزم أن يكون الاتحاد موجوداً فى الأزل مع أن الناسوت حادث . وهم معترفون بذلك . فهم يقولون إنه ابن مريم حملته وولدته. أو يلزم خلو الله تعالى عن هذا الكمال حتى ميلاد الناسوت الذى كمل به . تعالى الله عما يقولون.

لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وهو قول النصارى القائلين بالأقانيم الثلاثة فقد (جاء فى الرسالة الأولى ليوحنا الرسول بالإصحاح الخامس والعدد ٧و٨ « فإن الذين يشهدون فى السماء هم : الأب ، والكلمة، والروح، والماء ، والدم ، والثلاثة هم واحد »).

هذا صريح فى عقيدة التثليث . فبمَ سشهد الثالوث الأول ، والثالوث الثانى؟ وما هذا الثالوث الثانى ؟ وما الفرق بين الاثنين ؟ بأيهما نؤمن ؟ وكيف نستسيغ أن الأب ، والابن ، والروح القدس ، والماء ، والدم يشهدون؟ وما معنى أن الثلاثة هم واحد ، أو فى الواحد ، أو بالعكس ؟ إن هذا لشئ عجاب[(١)].

(١) التفسير الواضح ٧٥/٦ وانظر:شرح المقاصد ٥١/٢ والتمهيد للباقلانى ص٧٩ وشرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص٢٦١

ونقول لهم : لو وجدت فى ذات الله تعالى ثلاثة أقانيم - أصول - تمتاز بامتياز حقيقى - كما تزعمون - للزم أن يكون كل منهما إلهاً بذاته ، مع كون كل منها مفتقراً إلى غيره ، وإلا ما تألفت منها ذات واحدة ، فإذا ثبت التركيب، ثبت الافتقار ، والافتقار نقص ، ينافى الألوهية ، كما أن الامتياز يناقض الافتقار.

ونقول لهم : هل هذه الأقانيم التى تدَّعون تركب الإله منها ذوات أوصفات؟ فإن قالوا : ذوات ، لزم وجود ثلاثة آلهة لاواحد . وقولهم : لايلزم، فإنها كالشمس ذات أجزاء ثلاثة : الحرارة ، والضياء ، والجرم الذى هو الأصل ، ومع ذلك فهى واحدة . قولهم هذ باطل ؛ لأن ثلاثة الشمس ليست كلها ذوات ؛ لأن الحرارة والضياء عرضان بخلاف الثلاثة التى معنا . والتى فرضنا أنها ذوات.

وإن قالوا : إنها صفات . فلِمَ خُصَّت هذه الصفات الثلاثة بالذات بجعلها إلها دون باقى الصفات ؟ وكيف يعقل أن تكون الصفات إلهاً وحدها . أو مع الذوات ؟

هذا قليل من كثير يمكن أن يُوجَّه إليهم رداً على عقائدهم الباطلة. ولذلك هدَّدهم الله تعالى بأنهم إن لم ينتهوا عن هذا الضلال ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم . وتعجَّبَ من إصرارهم على القول بالاتحاد والحلول . وكان الواجب أن يتوبوا إلى الله ، ويستغفروه ، فالله غفور رحيم.

فحقيقة عيسى أنه رسول كسائر الرسل ، وأمه صِدِّيقة .كسائر النساء. صدَّقت عيسى فيما جاء به ، وعيسى وأمه كانا يأكلان الطعام . ويحتاجان إليه كسائر البشر ، ويذهبان إلى الخلاء ، ليقضيا حاجتهما ، كسائر الناس ، ومن يحتاج إلى (دورات المياه) لايصلح للألوهية .

ويرحم الله القائل:

قومُ عيسى قد تغالوا	فيه زُوراً وضلالا
مُذ أتوه حيث قالوا :	أنت ربٌّ؟ قال :لالا
مأأنا إلا عُبيدٌ	أعبدُ الله تعالى
فعَصَوْه ثم قالوا:	أنت ربٌّ لا محاله

انظر يامن يتأتى منك النظر كيف نبين لهم الآيات ، ونوضح لهم الدلالات على الحق ، ثم انظر كيف يُصرفون عنه بعد هذا البيان.

وقل لهم : أتعبدون عيسى وهو لايملك لكم ضراً ، ولانفعاً ، والله هو السميع العليم الذى يملك الضر والنفع ، ومن كان هذا شأنه فهو الإله الحق سبحانه وتعالى.

صفات المعانى

١ - صفة العلم

لحظات تأمل:

يبهرنا ماوصلت إليه أوربا وأمريكا هذه الأيام من تقدم علمى هائل فى مجال الصناعة والتكنولوجيا ، وفى مجال التسليح وغزو الفضاء ، وفى مجال الطب والتشخيص والعلاج ، وفى مجال الزراعة ، والثروة الحيوانية ، وعالم الغذاء.

وهاهى ذى اليابان والصين تدخلان حلبة السباق فى مجال الصناعات الدقيقة والثقيلة ، وفى مجال الإلكترونيات ، والسيارات ، والمنسوجات.

وتقفز إلى الساحة كل من : كوريا ، وتايوان ، وماليزيا وغيرها.

والجميع يحاول كشف أسرار الكون فى الأنفس والآفاق.

ومن قبل ذلك كانت الحضارة الإسلامية هى الرائدة فى كافة المجالات ، وعنها أخذت أوربا فى جامعات : قرطبة ، وطليطلة ، وصقلية ، وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط التى كانت محل الالتقاء.

فأفادت أوربا مما قدمه للبشرية أساتذة العلم المسلمون من أمثال : جابر بن حيان فى الكيمياء ، والخازن والحسن بن الهيثم فى الفيزياء ، وابن سينا وأبى القاسم الزهراوى فى الطب ، والبيرونى ، واليوزجانى ، والخوارزمى ، وعباس بن فرناس فى الفلك والرياضيات.

مأأعظم ما وصلت إليه البشرية من علوم خلال تاريخها الطويل ! وما أكثر ما اكتشفه الإنسان من معارف فى رحلاته للبحث عن المجهول!

كمّ هائل من العلوم ! وقدر ضخم من المعرفة !

فإذا ماانتقل الفكر من التأمل فى علم الإنسان إلى التفكر فى العلم الإلهى ، لحد الحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء إنه خطاب للبشرية جميعها فى كل عصورها . أما علمه هو جل فى علاه . فإنه يقول عنه : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ طه ويقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾ آل عمران

تعريف صفة العلم:

علم الله تعالى : صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى بها تنكشف له جميع الأمور سواء كانت واجبة ، أو جائزة ، أو مستحيلة ، وسواء كانت ماضية ، أو حاضرة ، أو مستقبلة ، انكشافاً تاماً ، لايسبقه خفاء أو جهل ، ولا يعقبه ذهول أو نسيان .

فالعلم صفة من الصفات الوجودية التى تدل على معنى زائد على ذات الله تعالى هو كمال يجب أن يتصف به أزلاً وأبداً .

والله تعالى يعلم الواجبات . فهو يعلم ذاته وصفاته ، ويعلم الجائزات وهى المخلوقات ، بل يعلم المستحيل كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ الأنعام/٢٨ فهو يعلم أنهم لايردون إلى الدنيا مرة أخرى ، ولكن أخبرأنهم لو ردوا لعادوا إلى الكفر.

وقـــال كـــذلك : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأنفال

والله تعالى يعلم ماكان ، وما يكون ، ومالايكون لو كان كيف يكون.

وهذا العلم الإلهى لايسبقه جهل أو خفاء ، ولا يعتريه ذهول أو نسـيان.

ويطلق (العلم) على البشر .كما قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ المجادلة/ ١١ وقال : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الأنبياء/ ٧٤ وقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ النمل/ ١٥ وقال للمصطفى ﷺ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ طه

هكذا يطلق العلم على البشر ، ولكن الاشتراك فى اللفظ فقـط ، ولـيس المسمَّى كالمسمَّى.

فعلمنا نحن حادث مستفاد من الحواس أو من التفكير العقلى ، وعلـم الله قديم أزلى.

وعلمنا محدود وقاصر ، وعلم الله كامل محيط إحاطـة تامـة بالكليـات والجزئيات.

وعلمنا يحدث بعد حصول الشئ ، وعلم الله سابق.

وعلمنا يعتريه النسيان والزوال ، وعلم الله ليس كذلك.

وعلمنا بشئ يشغلنا عن علمنا بغيره ، والله لايشغله علم عن علم.

وللعلم الإلهى تعلق واحد : (تنجيزى قديم) وهو تعلقه أزلاً بالواجبات والمستحيلاتِ والجائزات تعلق إحاطة وانكشاف دون سبق خفاء أو جهل.

صفة العلم فى القرآن والسنة:

أثبت القرآن الكريم هذه الصفة لله تعالى فقال:

• ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ البقرة/٢٥٥

• ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ النساء/١٦٦

• ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ فاطر/ ١١وفصلت/٤٧

• ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ هود/١٤

وورد أنه تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ وأنه: ﴿ علام الغيــوب ﴾

ومن أسمائه الحسنى : (العليم) قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٣٨)﴾ يس وهو الذى لايخفى عليه خافية ؛ ولايعزب عن علمه قاسية ولادانية .

و لم يرد وصفه تعالى بـ (العلامة) فى الكتاب أو السنة ، فلا يجوز إطلاقــه عليه ، فهذه اللفظة تستعمل لمن ترقى فى العلم من القلة والنقصان إلى الكثرة والكمال البشرى ببذل عاية الجهد فى طلب العلم.

و لم يكتفِ القرآن الكريم بإثبات (العلم) لله تعالى بهذه الصِّيَغ ، بل نفــى عن الله تعالى **أضداد العلم** :

• فنفى عنه النسيان فقال : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ وقال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾ طه .

• ونفى عنه الجهل فقال:﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سبأ/٣

• ونفى عنه النوم فقال : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ البقرة/٢٥٥

ومن أسمائه الحسنى التى لها صلة بالعلم:

١ - اسمه (**الحفيظ**) وللحفظ معنيان:

(أ) أحدهما ضد التضييع.فهو حافظ السموات والأرض ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ البقرة/ ٢٥٥

(ب) والآخر ضد السهو والنسيان . وهذا يرجع معناه إلى صفة العلــم .

٢- اسمه (**الخبير**) ومن معانيه : العالم بكنه الشئ المطلع على حقيقته .

قال تعالى :﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٤)﴾ الملك

٣- اسمه (**الشهيد**) ومن معانيه : العالم . فهو عالم الغيب والشهادة ، والغيب عبارة عما بطن ، والشهادة عبارة عما ظهر . فإذا اعتبر العلم مطلقاً ، فهو العليم ، وإذا أضيف إلى الغيبة والأمور الباطنة ، فهو الخبير ، وإذا أضيف إلى الأمورالحاضرة، فهو الشهيد. قال تعالى:﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ النساء

وتدبَّر هذه المواضع القرآنية الأربعة التى تعرض لنا نماذج من علمه تعالى:

الموضع الأول - قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾ المجادلة

الموضع الثانى- قال سبحانه : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ الأنعام

الموضع الثالث - قال عزوجل: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ (٨) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠)﴾ الرعد

الموضع الرابع - قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ لقمان

أما السنة المطهرة ، فيقول ﷺ :

- (اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ماكانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى).
- (اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولاأقدر ، وتعلم ولاأعلم ، وأنت علام الغيوب).
- وجاء فى حديثه ﷺ عن موسى والخضر قوله : (وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ، ثم نقر فى البحر. فقال له الخضر: مانقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل مانقص هذا العصفور من البحر)!!

الأدلة العقلية على اتصافه تعالى بصفة العلم:

١- إن الله تعالى خالق للعالم خلقاً متقناً محكماً . يدل على كمال علمه جل فى علاه.

وتأمل فى نفسك ، وفيما حولك لترى العجب العجاب من الابداع ، والنظام، والإتقان، والإحكام . وهو دليل العلم ، ويستحيل أن يكون المخلوق أكمل من الخالق.

وإذا مارأيت مملكة النحل ، أو بيت العنكبوت ، فاعلم أن الذى ألهمهما ذلك الصنع هو العليم الخبير ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الأعلى

٢- كما أنه ثبت أن الله خلق العالم باختياره ، وقصده ، وإرادته ، وهذا يدل على أنه عالم ، إذ يستحيل أن يتوجه اختياره ، وقصده ، وإرادته إلى شئ ليس معلوماً له.

٢- صفة الإرادة

لحظات تأمل:

جلس فى الاستراحة المجاورة لحجرة الولادة ، ينتظر البشرى السارة بميلاد أول أبنائه ، فقد كان فى علمه تعالى أن يهبه الذرية . وتحقق ماعلمه الله ، فحملت زوجه ، واقترب موعد الوضع.

ولكن : أيكون ذكراً أم أنثى؟ أيُشْبه أباه وأعمامه ، أم أمَّه وأخواله ؟ أيكون صالحاً تقياً باراً بوالديه . أم غير ذلك ؟ وهل حان موعد وصوله إلى الدنيا ؟ وفى هذا المكان من أرض الله ؟

احتمالات كثيرة ، وافتراضات عديدة.

وقطع أفكاره صوت يخبره بأن الولادة ليست قبل ساعة من الزمان . فترل إلى حديقة المستشفى يتجوَّل ويتأمل : أزهار وأشجار ، ورود وثمار . جميلة المنظر ، طيبة الرائحة ، متباينة الأنواع ، متعددة الألون ، مختلفة الأحجام ، متفاضلة فى الأُكُل!

سبحان الله ! الحديقة واحدة ، والتربة واحدة ، والجو واحد ، وكلها يُسقى بماء واحد!

وصعد إلى هناك مرة أخرى ، ليجد الخبر السار ، وليسجد شكراً لله.

ماأعظم إرادة الله!!

تعريف صفة الإرادة الإلهية:

هى صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى يُخصص بها الممكنات ببعض ما يجوز عليها من الأمور المتقابلة . والإرادة والمشيئة بمعنى واحد.

فهى من نوع الصفات الوجودية الذاتية القديمة التى تقوم بذات الحق سبحانه، وتدل على معنى زائد على معنى ذاته تعالى .

وإذا كان علم الله تعالى صفة انكشاف ، فإن إرادته صفة تخصيص ، فهى تخصص الممكن - وهذا مجال عملها - بالوجود أو العدم ، وبالصفات المعينة الخاصة به ، وبالزمن المحدد له . وبالمكان المخصص له ، وبالجهة المحددة له ، وبالمقدار المعين الذى سيوجد عليه.

وهكذا كل ما وجد فى العالم من مخلوقات ، وما يوجد الآن ، وماسيوجد بعد ذلك.

فالإرادة الإلهية هى التى ترجح الاحتمال الذى سيوجد عليه المخلوق من بين سائر الاحتمالات الأخرى التى يتصور أن يوجد عليها من الأمور المتقابلة التى جمعها أحدهم فى قوله:

المكنــات المتقــابلات وجودنا والعدم والصفات
أزمنة أمكنــة جهــات كذا المقادير روى الثقــات

ولا شأن للإرادة بالأمر الواجب ، أو الأمر الممتنع . وبيان ذلك:

١- لو تعلقت بالأمر الواجب عقلاً ، فإما لترجيح وجوده ، أو لترجيح عدمه، أما ترجيح وجوده ، فهو محال ؛ لأنه موجود بالفعل ، فكيف ترجح وجوده ؟ إنه تحصيل حاصل . وأما ترجيح عدمه ، فالواجب العقلى غير قابل للعدم.

٢- كذلك لاتتعلق إرادته تعالى بالأمر الممتنع عقلاً ؛ لأنها لو تعلقت به ، فإما لترجيح وجوده ، وهو غير قابل للوجود ، وإما لترجيح عدمه ، وعدمه حاصل.

إذن لاتتعلق الإرادة بالواجب ، ولا بالمستحيل، بل بالأمر الممكن الوجود فقط.

ومعنى الإرادة الإلهية يختلف عن معنى الإرادة البشرية ، فإن معنى إرادتنا للشئ: القصد ، والعزم ، والتصميم على فعله ، وهذاالمعنى حادث لايتناسب مع الله جل فى علاه.

كما أن إرادته تعالى وفعله متلازمان . بمعنى أنه تعالى إذا أراد أن يفعل فعل، وما فعله فقد أراده ، بخلاف العبد ، فانه يريد مالا يفعل ، وقد يفعل مالايريده، فلايوجد فعَّال لما يريد إلا الله وحده.

وللإرادة الإلهية بالممكن تعلقان:

١- تعلق صلوحى قديم : وهو صلاحيتها فى الأزل لتخصيص كل ممكن بأى أمر من الأمور الجائزة عليه.

٢- تعلق تنجيزى قديم : وهو تخصيص الإرادة فى الأزل كل ممكن ببعض ما يجوز عليه بدل البعض الآخر.

إرادته تعالى تشمل الخير والشر:

أولاً : مذهب أهل السنة : إن إرادة الله عامة تشمل الخير والشر ، والطاعة والمعصية.

واستدلوا على ذلك بما يلى:

١- الآيات القرآنية تصرَّح بذلك . ومنها:

• ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء/ ٣٥

• ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)﴾ المعارج

• ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾ الأنعام

• ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ الفتح/ ١١

٢- إننا نرى الشر موجوداً فى العالم ، فإذا لم يكن الله هو الذى أراد وقوعه، فمن الذى أراد وقوعه ؟ هل هناك إله غير الله؟

٣- يلزم أن يكون وجود الشر فى العالم بطريق القصر والإكراه بالنسبة لله تعالى ، وأنه عاجز عن دفعة وإزالته ، وهذا محال.

ومن أدب المسلم أن ينسب الخير إلى الله،والشر إلى نفسه.ولنتأمل قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾ النساء

(كلٌ من عند الله) هذا هو الحق . ولكن من حيث الأدب الذى ينبغى مع الله ، فإننا ننسب الخير إلى الله ، والشر إلى النفس . ولذلك جاءت الآية التى بعدها لبيان هذا : ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ النساء/٧٩

والشر نوعان:

١- **شر محض لاخير فيه بوجه من الوجوه** : وهذا النوع لايخلقه الله تعالى؛ لأنه عبث ، وهو منزه عنه . وهو المذكور فى قوله ﷺ : « لبيك وسعديك ،

والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك ، تباركت وتعاليت استغفرك وأتوب اليك»(١).

أى الشر الكلى المطلق ليس إلى الله ..

٢- **شر جزئى أو إضافى** : وهذا يخلقه الله لحكمة يعلمها ، فإن كان فى الشئ شر من وجه ، ففيه خير من وجوه .كنزول الأمطار التى ربما هدمت بعض البيوت، لكن فيها حياة للناس ، وللحيوان ، وللنبات ، وكحرارة الشمس التى ربما آذت إنساناً ، لكنها ضرورية للوجود(٢).

<u>وهذا النوع من الشر إذا أردنا نسبته إلى الله تعالى.فإما أن:</u>

١- نُدخله فى عموم المخلوقات : كقوله تعالى ﴿ الله خالق كل شئ ﴾ ولانقول : الله خالق القردة ، والكلاب ، والخنازير.

٢- أو ننسبه إلى سببه المباشر : كما فى قوله تعالى : ﴿ من شر ماخلق ﴾.

٣- أو نحذف الفاعل ، ونبنى الفعل للمجهول : كما فى قوله سبحانه : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)﴾ الجن فمع الشر قال: (أريد) ومع الخير والرشد ذكر الفاعل فقال : (أراد بهم ربهم رشدا).

ثانياً : **مذهب المعتزلة** : يرون أن الله لايريد الشر : ولاالكفر ، ولاالمعاصى، واستدلوا على ذلك بما يلى :

١- الشرور والمعاصى غير مأمور بها ، فلاتكون مرادة لله ، فالإرادة والأمر شئ واحد.

(١) رواه مسلم فى صلاة المسافرين ٥٣٥/١

(١) انظر تفصيل ذلك عند ابن القيم فى (شفاء العليل) الباب الحادى والعشرين والخامس والعشرين.

٢- لو كانت الشرور مرادة ، لكان الكافر مطيعا بكفره ، والعاصى مطيعا بمعصيته . لأن الطاعة تحصيل مراد المطاع.

٣- لو كانت الشرور مرادة . لوجب الرضا بها ، والرضا بالكفر كفر.

رد أهل السنة على هذه الأدلة:

١- هذا الدليل مبنى على أن الإرادة والأمر شئ واحد . وهو غير صحيح. كما سنذكره فى فقرة قادمة.

٢- الطاعة هى تحصيل ما أمر به المطاع ، لاتحصيل ما أراده.

٣- لايلزم من وجود الشرور وجوب الرضا بها . فنحن مأمورون بأن نرضى بما يحب الله ، ونسخط مايسخطه . وهناك فرق بين الإرادة والرضا كما سنذكره إن شاء الله.

وفيما يلى مواقف تدل على فساد رأى المعتزلة:

١- حُكى أن القاضى عبد الجبار المعتزلى دخل على الصاحب ابن عباد ، وعنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايينى ، وهو أحد علماء أهل السنة . فلما رأى الأستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء.

فقال الأستاذ : سبحان من لايجرى فى ملكه إلا ماشاء.

فقال عبد الجبار : أفيريد ربنا أن يُعصى؟

فقال الأستاذ : أفيعصى ربنا كرها؟

فقال عبد الجبار : أرأيت إن منعنى الهدى ، وقضى علىَّ بالردى . أحسن إلىَّ أم أساء ؟

فقال الاستاذ : إن منعك ماهو لك ، فقد أساء ، وإن منعك ماهو له . فهو يخصُّ برحمته من يشاء.

٢- وقف أعرابى على حلقة فيها (عمرو بن عبيد) أحد كبار المعتزلة.

فقال : ياهؤلاء ، إن ناقتى سرقت ، فادعو الله أن يردها علىَّ.

فقال عمرو بن عبيد : اللهم إنك لم تُرِد أن تُسرَق ناقته فسُرِقت ، فارددها عليه.

فقال الأعرابى : لاحاجة لى فى دعائك.

قال : ولِمَ؟

قال : أخاف – كما أراد ألاتُسرق فسُرِقت – أن يريد ردها فلاترد.

٣- تناظر (عمرو بن عبيد) مع مجوسى على سفينة فقال له عمرو: لِمَ لاتُسْلِمِ ؟

قال : لأن الله لم يُرِد إسلامى . فإذا أراد الله إسلامى أسلمت .

قال عمرو: إن الله يريد إسلامك ، ولكن الشياطين لايتركونك .

فقال المجوسى : فأنا أكون مع الشريك الأغلب.

الأدله السمعية والعقلية على صفة الإرادة :

أولاً– الأدلة السمعية:

١- من القرآن الكريم : يقول الله تعالى :

• ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ البروج

• ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ ﴾ القصص/ ٦٨

• ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الشورى

• ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ آل عمران/٢٦

٢- ومن السنة المطهرة :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « لايقل أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، ارحمنى إن شئت ، ارزقنى إن شئت ، ليعزم مسألته ، إنه يفعل مايشاء، لامكره له»[1].

وعن ابن عباس ان النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض ، ومابينهما ، وملء ماشئت من شئ بعد . أهلَ الثناء والمجد ، لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولاينفع ذا الجد منك الجد»[2].

ثانياً — الأدلة العقلية:

١- إذا نظرنا إلى مخلوقات الله ، نجد أن بعضها متقدم ، وبعضها متأخر ، ويجوز عقلاً تقدم ماهو متأخر . وتأخر ماهو متقدم . فاختصاص بعضها بالتقدم ، وبعضها بالتأخر لابد أن يكون بتخصيص مخصص ، وإرادة فاعل مختار.

٢- وإذا تأملنا هذه الكائنات ، رأينا مظاهر التنوع بادية فيها ، والتنوع مظهر الإرادة الحرة.

---

(١) رواه البخارى فى ك التوحيد ب فى المشيئة والإرادة — الفتح ٤٥٦/١٣

(٢) رواه مسلم فى ك الصلاة ب مايقول إذا رفع رأسه من الركوع ٣٤٧/١

تدبرْ هذه المواضع القرآنية التى تشير إلى ظاهرة التنوع:

• ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ النور

• ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ الرعد

• ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ فاطر

تعلقات الإرادة : لها تعلقان :

١- تعلق صلوحى قديم : وهو صلاحيتها فى الأزل لتخصيص كل ممكن بأى أمر من الأمور.

٢- تعلق تنجيزى قديم : وهو تخصيصها فى الأزل الممكن الذى سيوجد بأحد الأمور بعينه.

الإرادة والأمر :

يختلف معنى الإرادة عن معنى الأمر ، فإذا كانت الإرادة هى الصفة التى تختار للمخلوق أوصافه التى سيكون عليها ، فإن الأمر طلب حصول الفعل . فهما متغايران :

١- فقد يريد الله شيئاً ، ويأمر به ، كإيمان أبي بكر الصديق ، فإيمانه أمر الله به ، وأراده بدليل وقوعه ، فإنه لايقع فى ملك الله إلا ما أراده .

٢- وقد يريد الله شيئاً ، ولايأمر به . مثل كُفر أبى لهب ، فقد أراده الله بدليل وقوعه ، ولكنه تعالى لم يأمر أبا لهب بالكفر .

٣- وقد يأمر الله بشئ ، ولايريده ، كإيمان أبي جهل ، فإيمانه أمر الله به ، ولم يرده منه بدليل عدم وقوعه .

٤- وقد لايأمر الله بشئ ، ولايريده ، مثل كفر الأنبياء ، عليهم السلام .

وهناك فرق بين ارادة المريد أن يفعل ، وبين إرادته من غيره أن يفعل ، فإذا أراد الفاعل أن يفعل شيئاً ، فهذه الإرادة تتعلق بفعله هو ، أما إذا أراد من غيره أن يفعل شيئاً . فهذه الإرادة تتعلق بفعل غيره . والإرادة الأولى لاتحتاج إلى الأمر ، بينما تحتاج الإرادة الثانية إلى الأمر .

والله تعالى إذا أمر العباد بأمر ، فقد يريد إعانة المأمور على ما أمره به ، وقد لايريد إعانته ، وإن كان مريداً منه الفعل .

فالله قد أمر الخلق بطاعته ، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله ، ومنهم من لم يرد ، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد غير جهة أمره ، فهو قد أمر فرعون وأبا لهب بالإيمان ولكن لايلزم من أمره أن يعينهم على تحقيق الفعل ، فهو يخلق ما يخلق لحكمة .

ومثال ذلك الذى جاء من أقصى المدينة يسعى . وقال لموسى عليه السلام:

﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ القصص

فهذا مصلحته فى أن يأمر موسى بالخروج ، لافى أن يعينه على ذلك ، إذ لو أعانه لضرَّه قومه . فلا يلزم من أن يكون فى الأمر حكمة أن يكون فى الإعانة على فعل المأمور به حكمة ، بل قد تكون الحكمة فى عدم الإعانة .

الإرادة والرضا :

الرضا معناه : قبول الشئ ، واستحسانه ، ومحبته ، وترك الاعتراض عليه . فمعناه مختلف عن معنى الإرادة :

١- فقد يريد الله شيئاً ، ويرضى عنه : كإيمان المؤمنين ، وتوبة التائبين .

٢- وقد يريد الله شيئاً ، ولايرضى عنه ، ولايحبه : كمعاصى المؤمنين ، وكفر الكافرين . فهى بإرادته تعالى ، ومع ذلك لايحبها ، ولايرضى عنها. كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ الزمر/٧ وإن كان الكفر واقعاً بمشيئته تعالى .

وكما قال : ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ النساء/ ١٤٨

وقال : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ النساء/ ١٠٨ أى البهتان ، وشهادة الزور ، وبراءة الجانى ، ورمى البرئ .

وأخبر فى كتابه أنه لايحب المعتدين ، ولاالظالمين . ولاالكافرين ، ولاالمفسدين، ولاالمسرفين ، ولاالخائنين ، ولاالمستكبرين ، ولا من كان مختالاً فخوراً.

فإن قيل : كيف يريد الله أمراً ، ولايرضاه ، ولايحبه ؟ وكيف تجتمع إرادته لشئ وبغضه وكراهيته له ؟

فالجواب : أن المراد نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره .

١- فالمراد لنفسه : محبوب لذاته ، ولما فيه من الخير ، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد .

٢- والمراد لغيره : قد لايكون مقصوداً للمريد ، ولافيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته ، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، مراد له من حيث إيصاله إلى مراده ، فيجتمع فيه الأمران : بغضه وإرادته ، ولايتنافيان لاختلاف متعلقهما .

وذلك مثل الدواء الكريه إذا علم المريض أن فيه شفاءه ، وكقطع العضو المتآكل، إذا علم أن فى قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة ، إذا علم أنها توصل إلى محبوبه .

فهو سبحانه يكره الشئ ، ومع ذلك يريده ، لأنه سبب إلى أمر أحب إليه. فقد أراد الله خلق إبليس وهو أصل الشر والفساد ، ومع ذلك هو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب ، ترتبت على خلقه ، ووجودها أحب إليه من عدمها . من ذلك:

١- أن يظهر للعباد قدرة الرب على خلق المتضادات المتقابلات : فقد خلق شر الخلق إبليس ، كما خلق خير الخلق سيدنا محمداً ﷺ ، كما خلق الليل والنهار ، والداء والدواء ، والحياة والموت ، والحر والبرد ، والذكر والأنثى . فهذا من أدل الدلائل على كمال قدرته عزوجل .

٢- ظهور آثار أسمائه القهرية: كالقهار ، والمنتقم ، والعدل ، والضار ، والشديد العقاب ، والخافض ، والمذل . فهذه الأسماء كمال لله ، ولابد من وجود متعلقها ، ولو كان الخلق جميعاً فى طبيعة الملائكة ، لم تظهر آثار هذه الأسماء .

٣- ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ، ومغفرته وستره ، وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده . فلولا خلق مايكرهه ، ماظهرت آثار هذه الأسماء المباركة . وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم»[1] .

٤- ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذى يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلايضع الحرمان والمنع مكان العطاء والفضل ، ولاالفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع ، ولاالثواب موضع العقاب ، ولاالعقاب موضع الثواب ، ولاالعز مكان الذل ، ولاالذل مكان العز.

فلو قُدِّر عدم الأسباب المكروهة ، لتعطلت حِكَمٌ كثيرة ، ولفاتت مصالح عديدة ، ولو عُطِّلت تلك الأسباب لما فيها من الشر ، لتعطل الخير الذى هو أعظم من الشر الذى فى تلك الأسباب . وهذا كالشمس ، والمطر ، والرياح التى فيها من المصالح ماهو أضعاف أضعاف ما يحصل من الشر . كما سبق أن أشرنا.

٥- حصول أنواع مختلفة من العبودية لله ، لولا خلق إبليس لما حصلت . مثل عبودية الجهاد ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين ، لتعطلت هذه العبودية ، وتوابعها من الموالاة لله ، والمعاداه فيه .

ومثل عبودية الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وعبودية الصبر ، ومخالفة الهوى ، وإيثار محاب الله على محاب النفس .

---

(١) رواه مسلم فى ك التوبة ب سقوط الذنوب بالاستغفار ٢١٠٦/٤

٣- ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ، ومغفرته وستره ، وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده . فلولا خلق مايكرهه ، ماظهرت آثار هذه الأسماء المباركة . وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم»(١).

٤- ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذى يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلايضع الحرمان والمنع مكان العطاء والفضل ، ولاالفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع ، ولاالثواب موضع العقاب ، ولاالعقاب موضع الثواب ، ولاالعز مكان الذل ، ولاالذل مكان العز.

فلو قُدِّر عدم الأسباب المكروهة ، لتعطلت حِكَمٌ كثيرة ، ولفاتت مصالح عديدة ، ولو عُطِّلت تلك الأسباب لما فيها من الشر ، لتعطل الخير الذى هو أعظم من الشر الذى فى تلك الأسباب . وهذا كالشمس ، والمطر ، والرياح التى فيها من المصالح ماهو أضعاف أضعاف ما يحصل من الشر . كما سبق أن أشرنا.

٥- حصول أنواع مختلفة من العبودية لله ، لولا خلق إبليس لما حصلت . مثل عبودية الجهاد ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين ، لتعطلت هذه العبودية ، وتوابعها من الموالاة لله ، والمعاداه فيه .

ومثل عبودية الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وعبودية الصبر ، ومخالفة الهوى ، وإيثار محاب الله على محاب النفس .

---

(١) رواه مسلم فى ك التوبة ب سقوط الذنوب بالاستغفار ٢١٠٦/٤

وعبودية التوبة ، والاستغفار ، والاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ، ويعصمه من كيده وأذاه . إلى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن إدراكها .

فإن قيل : هل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب ؟

فهذا سؤال فاسد ، وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه ، كفرض وجود الابن بدون الأب ، والحركة بدون المتحرك ، والتوبة بدون التائب .

فإن قيل : كيف يرضى لعبده شيئاً ، ولايعينه عليه ؟

قلنا : لأن إعانته عليه تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التى رضيها له ، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هى أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة .

وقد أشار تعالى إلى ذلك فى قوله : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ التوبة

فأخبر سبحانه أنه كرِه انبعاثهم وخروجهم إلى الغزو مع رسوله - وهو طاعة -فلما كرهه منهم ، ثبطهم عنه ، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التى كانت تترتب على خروجهم مع رسوله : (لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) أى فساداً وشراً (وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ) أى سعوا بينكم بالفساد والشر (خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ) أى قابلون منهم ، مستجيبون

وعبودية التوبة ، والاستغفار ، والاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ، ويعصمه من كيده وأذاه . إلى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن إدراكها .

فإن قيل : هل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب ؟

فهذا سؤال فاسد ، وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه ، كفرض وجود الابن بدون الأب ، والحركة بدون المتحرك ، والتوبة بدون التائب .

فإن قيل : كيف يرضى لعبده شيئاً ، ولايعينه عليه ؟

قلنا : لأن إعانته عليه تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التى رضيها له ، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هى أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة .

وقد أشار تعالى إلى ذلك فى قوله : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ التوبة

فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم وخروجهم إلى الغزو مع رسوله - وهو طاعة -فلما كرهه منهم ، ثبطهم عنه ، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التى كانت تترتب على خروجهم مع رسوله : (لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) أى فساداً وشراً (وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ) أى سعوا بينكم بالفساد والشر (خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ) أى قابلون منهم ، مستجيبون

لهم ، فيتولد من سعى هؤلاء ، وقبول هؤلاء من الشر ماهو أعظم من مصلحة خروجهم ، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم . فهذا مثال يقاس عليه(1) .

٢-صفـــة القـــدرة

لحظات تأمل :

سافرت فوق سلسلة جبال (السروات) ساعات طويلة ، وهـالنى منظـر الوديان الخضر ، والجبال الشُّم المختلفة فى ارتفاعها ، وأشكالها ، وألوانهـا : بِيض ، وحُمر، وغرابيب سود . سبحان الله !!

ونزلنا لنستريح ، واستلقيت على ظهرى ، وعيناى تجول فى السماء ، وقد دخل الليل ، وبدت النجوم . تُرى ماعدد نجوم السماء ؟ تذكرت ما أجـاب به أحد علماء الفلك عن هذا السؤال : عددها عدد حبات الرمال الموجـودة على شواطئ بحار العالم !! سبحان الله !!

وداعبنى النوم . وما أحلى النوم بعد التعب ! إنه آية عظيمة ، ونعمة جليلة. وانتبهت على صوت رفيقى : هيا لنتعشى. أتأكل من السمك أم من الدجاج ؟ قلت : سمك ودجاج وسْط الصحراء ؟

سبحان الله !! ماأعظم قدرة الله !!

سَل الواحة الخضراء والماء جاريـاً ... وهذى الصحارى والجبالَ الرواسيا
سل الروضَ مُزداناً.سل الزهرَ والنَّدا ... سل الليلَ والإصباحَ والطيرَ شـاديا
وسل هذه الأنسامَ والأرضَ والسما ... وسل كلَ شئ تسمع الحمدَ ساريا
فلو جنَّ الليـــلُ وامتـدَّ سَـرْمَدا ... فمن غيرُ ربى يُرجعُ الصبحَ ثانيـا

(1) انظر تفصيل ذلك عند ابن القيم فى (مدارج السالكين) ٢٥١/١- ٢٥٦، ١٩٢/٢- ١٩٨ .

تعريف صفة القدرة :

هى صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى ، يتأتى بها إيجاد الممكنات وإعدامها على وفق علمه تعالى وإرادته .

فإذا كان علم الله صفة انكشاف ، وإرادته صفة تخصيص ، فإن قدرته صفة تأثير وتنفيذ لما علمه وأراده من الممكنات . فإذا علم الله تعالى أن سيكون لك غلام واختارت الإرادة الإلهية ، ورجحت الصفات التى سيكون عليها الغلام، فإن القدرة الإلهية هى التى ستبرز هذا الغلام إلى الوجود .

فبالقدرة يكون الإيجاد ، وبالقدرة يكون الإعدام ، وبالقدرة يكون الخلق ، وبالقدرة يكون الرزق ، وبالقدرة كانت الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وبالقدرة كان النوم سباتاً ، والليل لباساً ، والنهار معاشاً ، وبالقدرة يكون إرسال الرياح، وإنزال مياه الأمطار ، وإنبات الزروع والثمار والأشجار .

والقدرة كالإرادة لاتتعلق بالأمر الواجب ؛ لأنها لو تعلقت به لإيجاده يكون تحصيل حاصل ، ولو تعلقت به لإعدامه ، كان قلباً للحقائق . لأنه لايقبل العدم . كذلك لاتتعلق القدرة بالأمر المستحيل . لأنها لو تعلقت به لإيجاده ، كان قلباً للحقائق ، لأنه غير قابل للوجود ، ولو تعلقت به لإعدامه ، كان تحصيل حاصل.

فقوله تعالى : ﴿ والله على كل شئ قدير ﴾ أى كل شئ ممكن قابل للوجود والعدم . أما المحال لذاته مثل كون الشئ موجوداً معدوماً فى حال واحدة ، فلاتتعلق به القدرة .

وإذا سئلت : هل يقدر الله أن يخلق إلهاً مثله ، أو يُهلك نفسه .

فقل : هذا محال . لاتتعلق به القدرة الإلهية .

وعموم لفظ (كل) فى كل موضع بحسبه . ويُعرف ذلك بالقرائن :

فقوله تعالى عن الريح التى أرسلها على عاد : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ الأحقاف/٢٥ أى تدمر كل شئ يقبل التدمير ويستحقه . فمساكنهم — وإن كانت شيئاً — لم تدخل فى عموم : (كل).

وقوله تعالى عن بلقيس : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ النمل/ ٢٣ أى من كل شئ يحتاج إليه الملوك . وهكذا .

وقدرة الله تعالى تختلف عن قدرة العبد . لأن قدرة العبد حادثة ومحدودة. ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة ، وإذا قلنا : فلان من الخلق قادر، فعلى سبيل التقييد . أى قادر على كذا . ولايقال : قادر مطلقاً.

ولذلك فإنه لايوصف أحد غير الله بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجه آخر ، بل من وجوه أخرى . والله تعالى هو الذى ينتفى عنه العجز من كل الوجوه .

وقدرته تعالى تعمل وفق النواميس الطبيعية التى أودعها فى هذا الكون ، وحسبَ قانون الأسباب والمسببات الذى بنى عليه هذا الوجود . فقد جرت العادة أن توجد القدرة الإلهية الشئ عقب حدوث سببه . ومع ذلك قد يخرق الله هذه العادة إذا شاء فلا يأتى بالمسبب عقب السبب . كتخلف الإحراق عن النار ، كما فعله مع خليله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . أو يأتى بالمسببات بدون هذه الأسباب المعتادة . كما خلق عيسى بن مريم من غير أن يمسها بشر ليبين طلاقة قدرته تعالى ، وأنها تفعل بسبب وبدون سبب، ولعل فى قوله تعالى :﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ المائدة/٥٢

إشارة إلى ذلك ، فالفتح يكون بالأخذ بالأسباب ، وأما الأمر الذى من عنده، فيكون بكن فيكون .

وفعل الله تعالى نوعان :

١- نوع أبدعه كاملا ، لايزيد ولاينقص ، إلى أن يشاء فناءه أو تبديله كالسموات.

٢- ونوع جعل أصوله موجودة بالفعل ، وأجزاءه موجودة بالقوة . وقدَّره على وجه لايتأتى منه غير ماقدَّره فيه . كتقديره فى بذور القمح أن ينبت منها القمح دون غيره من النباتات ، وتقديره لمنى الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات .

نسبة الفعل بين الرب والعبد :

نلاحظ أن الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، قد تنسب بعض الأفعال التى نعلم يقيناً أنها من فعل الله تعالى ، ومن مظاهر قدرته عزوجل . تنسبها إلى العبد وذلك باعتبار أنه كان سبباً فيها ، وباشر إيجادها . من أمثلة ذلك :

١- نعلم أن الذى يهب الذرية هو الله تعالى . قال سبحانه : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الشورى

ونرى أن القرآن الكريم ينسب ذلك إلى جبريل عليه السلام . قال سبحانه:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ مريم

٢- نعلم أن الذى يدبر الأمر هو الله جل فى علاه .

ونرى القرآن الكريم ينسب ذلك إلى بعض الملائكة . قال سبحانه :

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾ النازعات

٣- نعلم أن الله تعالى هو الذى يرزق عباده .

ومع ذلك نراه ينسب الرزق إلى الخلق . قال سبحانه : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾ النساء

وقال عزوجل: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ النساء

٤- نعلم أن الله تعالى هو الغنى المغنى . ومع ذلك يسند هذا إلى رسوله ويشركه معه بواو العطف فى الإغناء. قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ ﴾ التوبة/٧٤

٥- والذى يفرج الكروب هو الله تعالى ، والذى يُيسر الأمور هو الله تعالى، والذى يستر العباد هو الله تعالى .

ومع ذلك نجد الرسول ﷺ ينسب ذلك إلى العباد . فيقول فى الحديث الصحيح : « من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفَّس الله عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسر ، يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ، ستره الله فى الدنيا والآخرة »[1] .

٦- والذى يغيث الملهوف هو الله تعالى .

(١) رواه مسلم فى ك الذكر والدعاء ب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٢٠٧٤/٤

ونجد الرسول ﷺ يقول : « من أغاث ملهوفاً ، كتب الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة »(١).

٧- والذى يُفْزَع إليه فى الحوائج هو الله تعالى .

ونجد رسول الله ﷺ يقول : « إن لله تعالى عباداً اختصهم بحوائج الناس ، يفزع الناس إليهم فى حوائجهم . أولئك الآمنون من عذاب الله »(٢).

وهكذا ينسب الفعل إلى الله نسبة حقيقية .

وينسب إلى العبد نسبة سببية مجازية .

صفة القدرة فى القرآن الكريم :

لم تَرِدْ لفظة (القدرة) كما جاءت صفة (العلم) ولكن ورد وصفه تعالى بأنه:(قدير) قال سبحانه:﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ الملك .

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ماتقتضى الحكمة بلا زيادة ولانقصان .

ومن أسمائه الحسنى : (القادر) قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ الأنعام

وقال سبحانه : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المرسلات

وورد أنه تعالى (المقتدر) قال سبحانه : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ الكهف

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس– جامع الأحاديث ١٠٩/٦

(٢) رواه الطبرانى عن ابن عمر – جامع الأحاديث ٤٤٨/٢

وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ القمر

وورد أنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ الذاريات

فالقوة كمال القدرة ، والمتانة كمال القوة ، وكون الشئ يؤثر فى غيره يسمى قوة ، وكونه لايتأثر بغيره يسمى أيضاً قوة .

فالإنسان الذى يقوى على أن يصرع الناس يسمى قوياً ، والإنسان الذى لاينصرع من أحد يسمى أيضاً قوياً .

إذا تأملنا هذا ، علمنا أن القوى على الحقيقة ليس إلا الله جل فى علاه.

ولم يكتفِ القرآن الكريم بإثبات صفة القدرة لله تعالى فقط ، بل أكد ذلك بأمور:

١- إنه منزه عن التعب والنصب : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ق

٢- إن قدرته لاتحتاج إلى آلات ، أو أدوات ، أو مواد : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ يس

٣- إنه لاتفاوت فى قدرته بين فعل الكثير والقليل : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ النحل

ومن حديث القرآن الكريم عن مظاهر قدرته تعالى نختار موضعين :

الموضع الأول – قال الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ الروم

الوضع الثانى – قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ الزمر/٢١

فبقدرة الله تُبخر الشمس مياه البحار والمحيطات ، فتصعد إلى السماء ماءً عذباً، لأن التبخير يخلصه من الأملاح التى تضر الإنسان ، والحيوان ، والنبات.

قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ الواقعة

لكن لو ظل هذا الماء يرتفع فى الفضاء لتبدد ، ولم يُنتفع بـه ، فاقتضت حكمته وقدرته أن يتكثف بالبرودة . ولكن كيف ذلك ؟

كان الظاهر أن تزداد الحرارة كلما ارتفعنا إلى أعلى ، لأننا نقترب بالارتفاع من الشمس ، وهى مصدر الحرارة ، ومعنى هذا أن يزداد بخار الماء حرارة ، كلما ارتفع إلى أعلى ، فيخف وزنه ، فيرتفع أكثر فى السماء ، فلايتزل أبداً إلى الأرض.

هذا هو الظاهر لنا ، لكن الله قضى بعكس مانظن لأول وهلة . فقد قضى سبحانه أن تنخفض الحرارة كلما ارتفعنا إلى أعلى حتى نصل إلى مسافة ثمانية أميال فوق سطح البحر ، وهذه هى منطقة تكون السحاب ، وهى فوق أعلى الجبال.

وبعد هذه المنطقة نجد منطقة ثانية ، تثبت فيها درجة الحرارة ولاتتغير ، حتى ارتفاع ثلاثين ميلاً فوق سطح الأرض ، بعدها تبدأ منطقة ثالثة تبدأ درجة الحرارة فيها فى الارتفاع الشديد ، تليها منطقة أخرى فيها تنخفض درجة الحرارة!

تأمل مظهر القدرة الإلهية فى التصميم المحكم لطبقات الجو مما يضمن ارتفاع ماء البحر العذب فوق مستوى الجبال ، ثم وقوفه وتكثفه بالبرودة الموجودة فى الطبقة الأولى ، حتى لايغادر الأرض . قال تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ المؤمنون

ولما كان بخار الماء خفيفاً لايرى ، فقد اقتضت حكمته تعالى وقدرتـه أن يرسل الرياح محملة بذرات الدخان ، والأتربة ، وحبوب اللقـاح ، فتـلتقح جزئيات بخار الماء بها ، فتثيرها وتحركها ، زتتجمع حتى تصير سحاباً ثقيلاً . لايغادر غلاف الأرض . تدبر قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا

﴿ ... يَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ الروم   كسفاً : قطعاً .
الودق : المطر .

ويأمر الله الرياح بنقل هذا الماء من البحار إلى أعماق القارات . قال تعالى:
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ الأعراف/ ٥٧

وتأمل توزيع الماء العذب فى عروق الأرض ، وكيف أن الأرض تحفظه من التعفن، وكيف تحفظه قريباً من سطحها ، حتى يمكن الانتفاع به فى شكل عيون وآبار، تحتها صخور المياه الجوفية ، حتى لاتغور فى أعماق الأرض .

اقرأ قوله تعالى :﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾ الملك

صفة القدرة فى السنة المطهرة:

١- قال ﷺ : « اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولاأقدر ، وتعلم ولاأعلم ، وأنت علام الغيوب »[1].

٢- وقال ﷺ للمريض : « ضع يدك على الذى تألَّم من جسدك وقل: باسم الله ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر مأجد وأحاذر»[2].

٣- وقال ﷺ :« إذا أراد الله خلق شئ ، لم يمنعه شئ »[3].

---

(١) رواه البخارى فى ك التوحيد ب قوله تعالى:﴿ قل هو القادر ﴾ الفتح ٣٨٧/١٣
(٢) رواه مسلم فى ك السلام ب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ١٧٢٨/٤
(٣) رواه مسلم فى ك النكاح ب حكم العزل ١٠٦٤/٢

٤- وعن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يارسول الله ، كيف يُحشَر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « أليس الذى أمشاه على رجليه فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » قال قتادة : بلى وعزة ربنا [1].

٥- وكان يقول خلف الصلاة : « لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، اللهم لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولاينفع ذا الجد منك الجد »[2].

٦- وعن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو فى شأن﴾ قال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرِّج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويخفض آخرين »[3].

الدليل العقلى على صفة القدرة :

لو لم يكن الله تعالى قادراً ، لكان عاجزاً ، ولو كان عاجزاً ما وجد شئ من هذه الموجودات ، وعدم وجودها باطل بالمشاهدة ، فبطل مأدى إليه ، وهو اتصافه بالعجز ، ووجب اتصافه بالقدرة .

تعلقات صفة القدزة :

لهذه الصفة المباركة تعلقان إجمالاً هما :

١- تعلق صلوحى قديم : وهو صلاحيتها فى الأزل للإيجاد والإعدام فيما لايزال[4].

---

(١) رواه مسلم فى ك صفات المنافقين ب يحشر الكافر على وجهه ٢١٦١/٤
(٢) رواه البخارى فى ك القدر ب لامانع لما أعطي الله – الفتح ٥٢١/١١
(٣) رواه ابن ماجه فى المقدمة ٧٣/١
(٤) الأزل : ماقبل وجود المخلوقات حين كان الله ولاشئ معه . وانتهى بوجود أول مخلوق . وما يزال : يبدأ بوجود المخلوقات ولانهاية له .

٢- تعلق تنجيزى حادث : وهو تأثيرها وإيجادها للأشياء بالفعل .

وأما تفصيلاً ، فيمكن أن تتصور تعلقات القدرة هكذا :

أولاً– التعلق الصلوحى القديم المذكور.

ثانياً – كون الممكن فيما لايزال قبل وجوده فى قبضة القدرة : إن شاء أبقاه الله على عدمه ، وإن شاء أوجده بها .

ثالثاً – إيجاد الله تعالى المخلوق بها فيما لايزال.

رابعاً – كون الممكن حال وجوده فى قبضة القدرة : إن شاء أبقاه الله على وجوده ، وإن شاء أعدمه بها .

خامساً – إعدام الله الشئ بالفعل عندما يحين وقت عدمه.

سادساً – كون الممكن حالة عدمه فى قبضتها : إن شاء أبقاه على عدمه ، وإن شاء أوجده بها .

سابعاً – إيجاد الله تعالى بها المخلوقات يوم البعث .

٤- صفة الحياة

صفة الحياة :صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى ، تصحح اتصافه بالعلم، والإرادة ، والقدرة ، ونحو ذلك من الصفات التى تستلزم حياة المتصف بها. وحياة الله تعالى تختلف عن معنى حياة مخلوقاته ، وليس فى إمكان البشر أن يصلوا إلى حقيقة معنى حياته تعالى . بل إن البشر يقفون عاجزين عن فهم معنى الحياة بالنسبة للمخلوقات :

إننا لانفهم من معنى حياة النباتات إلا النمو .

ولانفهم من معنى حياة الحيوانات إلا النمو ، والإحساس ، والحركة الإرادية .

ولانفهم من معنى حياة الإنسان إلا النمو والإحساس ، والحركة ، والتفكير.

أما حقيقة معنى الحياة ، فهذا شئ صعب المنال . فما بالك بإدراك حقيقة حياته عز وجل !!

وقد وردت الأدلة النقلية تثبت تلك الصفة :

- ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ البقرة/ ٢٥٥
- ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ ﴾ طه/ ١١١
- ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ الفرقان/ ٥٨

فحياته تعالى لايلحقها فناء ، ولاعدم ، ولاموت.

حُكى أنه مات ابن لرجل : فبكى حتى عمى ، فقيل له : الذنب لك ، حيث أحببت حياً يموت ، هلا أحببت الحى الذى لايموت.

وكما أنه تعالى (حى) فهو (محى) فيحيى الإنسان والحيوان بخلق الروح فى الجسد ، ويحيى الأرض بإنزال الغيث عليها .

وكما أنه المحيى ، فهو (المميت) قال تعالى:﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ ﴾ الملك/٢ وإنما تمدَّح بالإماتة ؛ ليعلم الخلق أنه قادر على التصرف فى الأشياء كيف شاء. والفرق بين صفة (الحياة) و(المحيى) أن الصفة الأولى ذاتية ، والثانية فعلية وكان رسول الله ﷺ يقول فى دعائه: « ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث»[1].

(1) الترغيب والترهيب ٤٥٧/١

أما الدليل العقلى على اتصافه تعالى بصفة الحياة فهو : أنه تعالى ثبت أنه متصف بالعلم ، والإرادة ، والقدرة ، وكل من اتصف بهذه الصفات فهو حى.

فمن المسلَّم عقلاً أن الميت لايكون عالماً قادراً.

ومن أين هذه الحياة التى نراها فى العالم إن لم تكن هبة من الحى الذى لا يموت؟

٥- صفة السمع

سمع الله صفة من صفاته الوجودية الأزلية القائمة بذاته تعالى ، تنكشف بها له جميع الأصوات الموجودات انكشافاً تاماً يغاير الانكشاف بصفتى العلم والبصر ، ليست بأذن أو ألة ، كسمع المخلوقات تعالى الله عن ذلك .

إنه يسمع كل شئ فى هذا الوجود.

إنه يسمع دعوات عباده ، وتضرعهم إليه ، ولايشغله نداء عن نداء ، ولاتمنعه إجابة دعاء عن دعاء ، وتأمل ما يكون يوم عرفة قبيل الغروب من ضيوف الرحمن، وما يكون حول بيت الله الحرام .

وصفة السمع غير صفة العلم . قال تعالى : ﴿وهو السميع العليم﴾ فلو كان السمع هو العلم ، لكان تكراراً ، لافائدة فيه .

وعندما أرسل الله موسى وهارون قال لهما:﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾
طه/٤٦

وقال عن المشركين الذين يكيدون لحبيبه المصطفى ﷺ : ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ الزخرف

وعندما جاءت (خولة بنت ثعلبة) تجادل رسول الله ﷺ فى شأنها نزل قوله تعالى : ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ المجادلة

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ فى جانب البيت تحدِّثه ، ماأسمع ماتقول » ولكن الله سمع قولها .

ولما رأى الرسول ﷺ أصحابه يرفعون أصواتهم بالتكبير ، أشفق عليهم ، ودنا منهم وقال : « أرْبَعُوا على أن أنفسكم . إنكم ليس تدعون أصم ، ولاغائباً . إنكم تدعون سميعاً قريباً »[1].

لا تسألنَّ بنى آدمَ حاجةً ⁂ وسَلِ الذى أبوابهُ لاتُحجبُ
الله يغضبُ إن تركت سؤالَه ⁂ وبُنَىِّ آدمَ حينَ يُسألُ يغضبُ

والدليل العقلى على اتصافه بالسمع : أنه لو لم يتصف بالسمع ، لاتصف بضده ، وهو الصمم ، والصمم نقص ، وهو على الإله محال .

كما أن فى المخلوقات نعمة السمع ، وهى هبة من الله تعالى ، ولايعقل أن يكون واهبها فاقداً لها . فلو لم يكن سميعاً ، لكان فى المخلوقات ماهو أكمل من خالقها . وهذا محال.

(1) رواه مسلم فى الذكر والدعاء ٢٠٧٦/٤

٦- صفـــــة البصـــــر

هى صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى تنكشف بها له جميع المشاهدات.

وهى ليست بجارحة وحاسية ، كبصر المخلوقات ؛ لأن الله منزه عــن ذلك.

وهى صفة تعم جميع المخلوقات ، ولذلك قيل : إذا عصيت مــولاك ، فلا تعصه فى موضع لايراك .

ومن أسمائه الحسنى : (البصير) وهو الذى يشاهد ويرى ، حتى لايغيب عنه ماتحت الثرى.

تعلق السمع والبصر:

وسمعُ الله وبصره يتعلقان بالأمر الموجود فقط ، سواء كــان واجبــاً أو ممكناً، ولايتعلقان بالمعدوم سواء كان مستحيلاً أو ممكناً ، وللسمع والبصر تعلقات ثلاثة :

أ- تعلق صلوحى قديم : وهو صلاحية السمع والبصر فى الأزل للتعلق بما سيوجد من الممكنات.

ب- تعلق تنجيزى قديم : وهو تعلقهما أزلاً بذات الله وصــفاته تعلــق انكشاف .

جـ- تعلق تنجيزى حادث : وهو تعلقهما فعلاً بالممكنات بعد وجودهــا تعلق إحاطة وانكشاف.

الدليل على صفة البصر : قال تعالى : ﴿ إن الله سميع بصير ﴾.

وقال سبحانه :﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ العلق

وقال ﷺ « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تــراه، فإنــه يراك».

وقد عاب خليل الله إبراهيم على الأصنام أنها لاتسمع ولاتبصر ، فلاتصلح للعبادة ، ولا للألوهية . فقال لأبيــه:﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ مريم ، وقال لقومه عباد الأصنام : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ الشعراء .

الدليل العقلى : أنه تعالى لو لم يتصف بالبصر ، لاتصف بضــده ، وهــو العمى ، وهو نقص على الله محال .

والبصر كمال ، وكل كمال الله أولى أن يتصف به ، ولايعقل أن يكــون واهب البصر للمخلوقات فاقداً له ، وإلا كان المخلوق أكمل من الخــالق وهو محـــــــال.

وأجمعت الأمة على اتصافه تعالى بصفتى السمع والبصر .

يامَنْ يرى مَدَّ البعوضِ جناحَهُ	فى ظلمةِ الليلِ البهيمِ الأليــلِ
ويرى نباط عروقِها فى نحرِها	والمخَّ فى تلك العظامِ النُّحَّــلِ
ويرى ويسمعُ مايرى ما دونها	فى قاعِ بحرٍ زاخــرٍ متجنــدلِ

٧- صفـــــة الكـــــلام

لحظات تأمل :

إنَّ الله تعالى خلــق الأرض ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ فصلت.

وعَهِدَ إلى ملائكته المدَبِّرات أمراً بالقيام على شئون خلقه من : إحيــاء ، إماته ، وخلق ، ورزق ، وغيث ، وخسف ، ورفع ، وخفض ، وغير ذلك.

وعهد إلى رسله من البشر بتبليغ رسالاته إلى خلقه .

كل ذلك كان . ويكون بهذه الصفة المباركة : صفة الكلام .

إن الإنسان منا كم يستخدم من الكلمات والألفاظ أثناء حديثه ، وكتابته، قراءته !!

بل كم لغة تتكلمْ بها مخلوقات الله !!

فما ظنك بكلام الله تعالى الخالق لهذه الكائنات ، العالم بكلماتها وألفاظها. والمدبر لشئونها !!

ألا يكون كلامه من الكثرة والعظمة على النحو الذى يشير إليه قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ لقمان/٢٧

ويشير إليه قوله : ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ الكهف

تعريف صفة الكلام والمذاهب فيها :

صفة الكلام صفة يكون بها الدلالة والإفهام.

وأجمعت الأمة على أنه تعالى متكلم . هذا ليس محل خلاف . لكنهم عندما فكروا فى المسألة عقلياً ، وجدوا دليلين متعارضين :

الأول — أن كلامه تعالى صفة له ، وكل صفاته قديمة ، فكلامه قديم.

الثانى — أن كلامه مكون من أجزاء متعاقبة فى الوجود حسب القراءة و الكتابة، وكل ماكان كذلك فهو حادث مخلوق، فكلامه حادث مخلوق.

فافترقت الأمة إلى أربع فرق :

ذهبت فرقتان إلى صحة الدليل الأول . وهما : الحنابلة والأشعرية .

وذهبت فرقتان إلى صحة الدليل الثانى . وهما : الكرامية والمعتزلة .

(١) **فالحنابلة**:قالوا : كلامه تعالى حروف وأصوات. تقوم بذاته . وهـو قديم. ولكن .. كيف يكون قديماً قائماً بذاته ، وكل حرف يحصـل بعـد انقضاء سابقه؟

(٢) **والأشعرية** : قالوا : كلامه نوعان : نفسى ولفظى .

أ- فالكلام النفسى : هو المعانى التى تكون فى النفس . وهو غير الكلام ؛ لأن العلم صفة انكشاف ، وغير الإرادة ؛ لأنها صفة تخصيص . وهذا الكلام النفسى هو القديم .

ب- والكلام اللفظى : وهو العبارات التى تدل على مافى النفس ، وهذا النوع حادث .

(٣) **والكرامية** : قالوا : كلامه حروف وأصوات حادثة تقوم بذاته.

ولكن .. كيف يكون الله محلاً للحوادث ؟

(٤) **والمعتزلة** : قالوا : كلامه حروف وأصوات ، لكنها ليست قائمة بذاتـه تعالى ، بل يخلقها فى غير ذاته . كاللوح المحفوظ ، أو جبريل ، أو النبى مثلاً.

ولكن .. كيف يكون الله متكلماً بكلام لايقوم بذاته ؟ وهل تعتبر أنت متكلماً إذا قام الكلام بزميلك ؟

ثم قامت المعارك الحامية بين الفرق ، وتصارعت الأدلة ، وازدادت المجمعات ضراوة على كل فريق ، مما سُوِّدت به الصفحات الضخمة، وضُيِّع فيـه وقـت المسلمين فى محاولة التعرف على حقيقة وكنه (كلام الله) حتى سُمِّى علم التوحيد ب (علم الكلام) كما سبق .

ولا أريد أن أعرض لمذهب كل فرقة وأدلتها ، فهذا أمر يطـول جـداً ، هق إلى أقصى درجة ؛ لكنى أريد أن أنبه إلى أمر مهم بعد أن أيقنا بثبوت ه الصفة لله ، وهو ضرورة التفرقة بين ما يقوم بذاته تعالى من هذه الصفة ، ن ما يقوم بذواتنا نحن.

إننا عندما نقرأ أو نكتب أو نسمع كلام الله لابد أن نفرق بـين هـذين رين.

وقد أشرنا فى المقدمة إلى دور أعداء الإسلام فى ظهور مشكلة خلق القرآن البيئة الإسلامية . وقد تورط فيها بعض الخلفاء ، وما كان ينبغى لهـم أن ضوا رأياً فكرياً على جميع العلماء والمفكرين ، ولا أن يمتحنوهم للتأكد من قفهم من هذه القضية التى ما أثارها رسول الله ﷺ ولا أصحابه رضى عنهم .

وبسبب هذا البلاء خرج الإمام البخارى فاراً . وقال : اللهم اقبضنى إليك ر مفتون . فمات بعد أربعة أيام .

وسُجن (عيسى بن دينار)ت ٢١٢هـ فقيه الأندلس فى عصره عشرين سنة.

وسئل الإمام (الشعبى) ت ١٠٣هـ عنها فقال : أما التوراة ، والإنجيـل ، زبور ، والفرقان ، فهذه الأربعة حادثة . وأشار إلى أصابعه ، فكانت سبب ته.

واشتهر هذا الجواب عن الإمام الشافعى رضى الله عنه .

وحُبس الإمام (أحمد بن حنبل) وضُرب بالسياط حتى غُشى عليه. ويذكر النبى ﷺ قال للإمام الشافعى فى المنام : بشّر أحمد بالجنة علـى بلـوى صيبه فى خلق القرآن ، فأرسل له كتاباً ببغداد . فلما قرأه بكـى . ودفـع

للرسول قميصه الذى على جسده ، وكان عليه قميصان ، فلما وصـل إلى الشافعى غسله ، وادَّهن بمائه . تبركاً به ، وطلباً للشفاء من الله.

وقد قال الإمام البيضاوى — وهو من هـو — عـن صـفة الكـلام : « والإطناب فى ذلك قليل الجدوى ؛ فإن كنه ذاته وصفاته محجوب عن نظر العقول »(١).

ويكفينا أن نثبت لله تعالى هذه الصفة المباركة صفة الكلام ؛ لأنهـا صـفة كمال. لايمكن أن يخلو عنها الإله الحق ، ألا ترى أنه ردَّ على عُبَّاد العجل بأنه لايتكلم، وهذا نقص . فلا يصلح أن يكون إلهاً . قال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ﴾ الأعـــراف/ ١٤٨ ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩ ﴾ طه

(١) متن الطوالع ص٧٩

الفهـــــــرس

لموضـــــوع	الصفحة

الفهـــــــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الفهـــــــــــــرس

الموضــــــوع — **الصفحة**

الفهرس

الموضوع	الصفحة